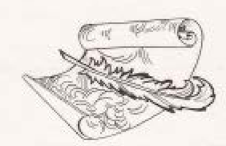
الأعلام من الأدباء والشعراء



زهير بن أبي سلمى

حياته وشعره

إعداد

محمد يوسف فران

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء



حياته وشعره

إعداد
محمد يوسف فران

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

المقدمة

يضم هذا الكتاب بين دفتيه صورة تكاد تكون كاملة عن حياة رجل بات نسيجاً وحده في اكتمال النضج وصفاء الذهن وعلو الهمة وطول باع في رائق الشعر وجيده حيث اننا نستشف منه صوراً شيقة تساعدنا على وضع بصماتنا على العديد من ملامح الحياة العربية قبل الإسلام.

لقد قسمنا هذا الكتاب إلى ثلاثة فصول وخاتمة.

١ - تحدثنا في هذا الفصل بإيجاز عن صفة شبه الجزيرة العربية التي كان لصعوبة العيش فيها أثرٌ كبير على حياة العربي. كما تحدثنا عن طبيعة الحياة الإجتماعية والروحية والعلمية والسياسية وما كان لها من مؤثرات على شحذ همم الناس وهم يتحملون شظف العيش وقساوة الحياة في تلك الأرض الموحشة.

٢ - وتحدثنا في هذا الفصل عن ولادة الشاعر وحياته الخاصة من خلال علاقته بقبيلته ومجتمعه القبلي والظروف التي ساعدته على إنماء موهبته الشعرية والأدبية حتى غدا علماً من أعلام الشعراء الكبار الذين استطاعوا أن يرسموا الطريق المعبدة السليمة للأجيال المتعاقبة التي حذت حذوهم في ترسم خطاهم واعتماد مناهجهم في سلامة اللفظ ومتانة العبارة وحسن الإيقاع. كما

تحدثنا في هذا الفصل عن ديوان زهير والاهتمام الذي لقيه حتى خرج للناس على الشكل الذي نراه. وكذلك لم نغفل أمر الذين اهتموا بهذا الديون وماتضمنه من الشعر مع استعراض مقتضب للعديد من آراء المحدثين والقدماء فيه.

٣ ـ في هذا الفصل تحدثنا عن الأغراض الشعرية التي وجدناها في شعر زهير بدءاً بالغزل والوقوف على الاطلال ووصف حركات الظاعنين على ناقة سريعة كبقرة الوحش حيناً وحيناً كالظليم وأحياناً كحمار الوحش وطوراً كالقطا، كما لم يغفل أن يشبه فرسه بالصقر في سرعة طيرانه، وانتهاء بالمديح والحكمة التي يضمنها شعره وهو يرصد بها تجاربه ومعاناته من صروف الدهر وتقلبات الأيام. عدا ذلك فقد أفردنا تحليلاً خاصاً للمعلقة لما لها من الأهمية الشعرية والتاريخية لما تحمله من طاقات اسلوبية تكاد تتميز بها عما قيل في العصر الجاهلي من شعر وخصوصاً فيما يتعلق بالمعاني الجديدة التي انفرد بها زهير عن غيره ممن عاصروه.

وأما في الخاتمة فقد تحدثنا عن خصائص شعر زهير العامة محددين الطريق التي سلكها في وضع صوره وهي تنبض بالحياة، فمن سلامة اللفظة وعمق دلالتها، إلى نقاء العبارة وخلوها من التعقيد، إلى رقة الإيقاع في جمال موسيقاه، إلى جمال الصورة وهي «تكاد أن تحفر في أذهاننا حفراً» وذلك لما لزهير من براعة وحذاقة في إظهار فنه الخالد.

ولا يسعنا، بعد الانتهاء، إلا أن نحمد الله الذي قدرنا على إنجاز هذا العمل المتواضع الذي نرجو من خلاله أن نكون قد وفينا زهيراً بعض حقه علينا إذ لا كمال إلا لله سبحانه.

النبطية في ٢٠/ ١٢/ ١٩٨٨

محمد فران



مكتبة
لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

صفة الجزيرة العربية

تقع شبه الجزيرة العربية في القسم الجنوبي الغربي من قارة آسيا. ويحدها بحر عُمان وخليج العرب من الشرق، والبحر الأحمر من الغرب، والعراق وبادية الشام من الشمال، والمحيط الهندي من الجنوب.

ولقد قسم جغرافيو العرب شبه الجزيرة العربية إلى خمس مناطق جغرافية:

١ ـ تهامة وهي المنطقة المحاذية للبحر الأحمر غرباً، وهي منطقة سهلية ضيقة تكاد تتسع في بعض المناطق إلى خمسين ميلاً عرضاً. وهي أرض رملية شديدة الحرارة.

٢ ـ منطقة الحجاز أو سلسلة جبال السراة حيث تكثر فيها الأودية البركانية والحرّات (أرض رملية)، وتعلوها قمم رملية جرداء، ويتخلل هذه الأودية، في هذه المنطقة، آبار وعيون فيتولد عن ذلك خصب وحياة، كما هي الحال في المدينة المنورة، يثرب، وفي وادي القرى. ومن مدن هذا الوادي، كذلك قُرح التي كانت تقام فيها سوق عظيمة، إضافة إلى مدينتي خيبر وفدك. وكان ينزل في هذه الجهات قبل الإسلام قبائل عُذْرة وبَلِيّ وجهينة وقضاعة التي كانت عشائرها تمتد إلى شبه جزيرة سيناء.

٣ ـ نجد[1] وهي هضبة واسعة تقع شرقي جبال الحجاز التي تفصلها عن تهامة. وتمتد هذه الهضبة شرقاً حتى تتصل بأرض العروض[2] ويسمي العرب الجزء المرتفع من نجد، مما يلي الحجاز، العالية أما الجزء المنخفض، مما يلي العراق، فيسمونه السافلة. وأما جزؤها الجنوبي المحاذي لليمامة فيسمونه الوشوم، والقسم الشمالي منها يسمونه القصيم أو أرض الغضا نسبة إلى النبات المعروف فسمي أهل نجد بأهل الغضا. وتمتد نجد شمالاً حتى تتصل ببادية النفود التي تزخر بكثبان الرمل الأحمر حيث تتخللها سهول فسيحة ولكن لا ماء فيها. وتمتد بادية النفود جنوباً شرقياً، بكثيب رملي عظيم، يفصل بين نجد والعروض، ويسمي الدهناء أو رملة عالج وهي منازل تميم وضبة في الجاهلية والإسلام. وإذا أكملت بادية النفود امتدادها إلى الربع الخالي جنوباً، أصبحت نجدُ محاطةً، شمالاً وشرقاً وجنوباً، ببوادٍ وصحارى تعزلها عن العراق، من الشمال، وعن العروض، من الشرق، وعن الشّحْر وعُمَان ومَهْرة وحضرموت من الجنوب وأما باديتا العراق والشام فلا تعتبران من هضبة نجد.

٤ ـ العروض أو اليمامة والبحرين، وهي أرض تمتد من البصرة في العراق، شمالاً، إلى عُمان اليوم جنوباً. وتكثر في هذا

---

(١) ـ الأرض المرتفعة.

(٢) ـ اليمامة والبحرين.

الإقليم المياه، وخاصة في الإحساء. وعُـرِف سكان هـذا الحزام العظيم بصناعة الملاحة واستخراج اللآلىء.

٥ ـ اليمن ـ إذا اعتبرنا أن العروض هو الأرض الممتـدة من الموصل إلى عمان، فإن اليمن هو القسـم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية. وتقسم اليمن بدورها إلى الأقسام الطبيعية الثلاثة التالية:

أ ـ ساحل ضيق خصب يسمى تهامة اليمن.

ب ـ سلسلة جبال على موازاة ذلك الساحل، وهي في الحقيقة امتداد لسلسلة جبال السراة.

ج ـ وهضبة تمتد، شمالاً، إلى هضبة نجد وصحراء الربع الخـالي. وفي هذه الهضبـة أودية وسهـول تزرع بفضـل الأمطار الموسمية ولقـد وصف القرآن الكـريم هذه الهضبـة إذ يقول الله سبحانه: ﴿لقد كان لسبـأ في مسكنهم آية جنتـان عن يمين وعن شمـال، كلوا من رزق ربكم واشكـروا لَـهُ، بلدة طيبـة ورب غفور﴾.

أما مناخ شبه الجزيرة العربية فهو صحراوي موسمي شديد الحرارة غالبـاً. فقد تنتـابها ريـاح السموم صيفـاً فتلفح الـوجوه وتشوي البشرة شياً وخصوصاً في هضبة نجد. وكذلك تهب عليها الرياح الشرقية اللطيفـة التي تنعش النفوس بعـد رياح السمـوم الـلافحة، وتسمى ريـاح الصبا. إضـافة إلى الـرياح الشمـالية القارصة التي قد تتحول إلى صقيع شديد البرودة.

وأما أمطار تلك الأصقاع فقليلة جداً، اللهم، إذا استثنينا القسم الجنوبي منها حيث تهطل أحياناً الأمطار الموسمية في الصيف والقسم الشمالي حيث تهطل الأمطار في الشتاء. وقد يُحدِث المطر سيولاً عارمة في اليمن وشمالي الحجاز. وأما في قلب شبه الجزيرة فيقلّ هطول المطر أو ينعدم، فسماه العرب غيثاً و«استنزلها الشعراء على ديار معشوقاتهم وقبور موتاهم». وقد ارتبطت حياة العربي في هذه الجزيرة بمواطن الغيث، لأن الأرض من دونه تصبح يابسا لا حياة فيها إذ ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ ومن أجل ذلك كانت القبائل العربية تترصد مواطن الغيث وتسعى جاهدة بالتنقل من مكان لآخر طلباً للكلأ والماء واستمراراً لإبقاء قطعانهم وتناميها لأن في ذلك استمراراً لهم في بقائهم في الحياة.

أما نباتات الجزيرة العربية فكانت تتوافر على الساحل الشرقي وفي الجنوب وفي قرى الحجاز واليمامة. ففي اليمن مثلاً كانت تكثر أشجار اللبان والطيب والبخور. وفي الطائف كانت تكثر الكروم وخصوصاً كروم النخيل. ونلاحظ، بل والجدير بالذكر، أن، في الشعر العربي ذكراً كثيراً للعديد من الأزهار كالعرعار والخزامى، ومن الأشجار كالغضا والأثل والسدر والحنظل.

أما الحيوان، في شبه الجزيرة العربية، فقد أولاه العربي اهتمامات خاصة كانت تتمحور حول «الخيل والإبل والأغنام والأوعال

والظباء والنعام والغزال والزراف وحمار الوحش والأسد والضبع والذئب والفهد» والنمر وعصائب الطيور على أنواعها من «الحدأة والصقر والنسر والغراب والقطا والجراد والنحل والعقبان» وغير ذلك كثير مما عاشره العربي في صحرائه وباديته. والشعر العربي لا يكاد يخلو من ذكر مثل هذه الحيوانات كالجواد والناقة والذئب والأسد والبقرة الوحشية والعَيْر وغير ذلك مما نراه كثيراً في الشعر الجاهلي.

الحياة الاجتماعية في الجاهلية.

كان العرب قبل الإسلام بدواً وحضراً. فالبدو هم الذين كانوا يعيشون في البوادي ويتنقلون من مكان لآخر سعياً وراء الماء والعشب. والحضر، هم في الأصل بدو، تحولوا تدريجياً إلى أن يعيشوا حياة مستقرة عمادها الزراعة والتجارة والصناعة. وأنى للحياة أن تستقر، إذ أن البدو كانوا في قتال واقتتال على منابت العشب ومواقع المياه وهم يتتبعون آثار الغيث؛ والحضر قد انقسموا إلى مملكتين متنازعتين: المناذرة، وهم عرب الحيرة، في العراق وقد كانوا يشدون أزر الفُرس، والغساسنة في الشام وقد كانوا يشدون أزر البيزنطيين. ودارت معارك طاحنة بين هاتين المملكتين كان من شأنها أن تنهك القوى وتفرق الناس بدلاً من أن يتجه أمراء تلك المملكتين للعمل، ايجابياً على جمع الكلمة لتدعيم الاستقرار الذي كان ينبغي أن يسود. لذلك كنت ترى العرب في ذلك الوقت يتفرقون شذر مذر، حيث لا شيء يجمع بينهم فرزحوا تحت شراسة الاقتتال الدامية بدواً وحضراً إلى أن جاء الإسلام وعمل على نشر العدالة الإجتماعية والمساواة بين الناس حقوقاً وواجبات.

فالحرب أهم ميزة من مميزات الحياة العربية قبل الإسلام إذ أنها

كانت تقوم على أساس «من سفك الدماء حتى لكأنه أصبح سنّة من سننهم، فهم دائماً قاتلون ومقتولون... وأكبر قانون عندهم هو قانون الأخذ بالثأر، فهو شريعتهم المقدسة... إذ كانوا يحرّمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرمائهم»، ولا يحق لأي واحد منهم أن يخرج على هذه الشريعة... فتتوارث الثارات وتستمر الحروب فتستضري الحياة وتقسو، ولا يمكن للفرج أن يحصل إلا بعد أن يتعهد ديات القتلى رجل شهم عالي الهمة قادر على العض على الجراح فتتبلسم النفوس ويبتسم العمر حيث تبرز معاني النجدة والاستغاثة والاستجارة كما نلحظ ذلك عند زهير بن أبي سلمى إذ يقول:

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم
طوال الرماح لا ضعافٌ ولا عزل

وإذا كانت حياة العربي قتالاً واقتتالاً على حد قول دريد بن الصمة إذ يقول:

يُغار علينا واترين فَيُشْتَفى
بنا إن أصبنا أو نُغير على وِتْرِ
قَسَمْنَا بذاك الدهرَ شطرين بيننا
فما ينقضي إلا ونحن على شَطْرِ

فما هي الحال يا ترى للخلاص من ويلات الحروب وقساوة الحياة؟ وهذا التحرك الحياتي المعاشي، أساسه النظام القبلي

المنغلق؟ فالقبيلة أسرة كبيرة تشد أواصرها روابط متينة كالقرابة الدموية أو الرحمية حيث تتولد عاطفتا العمومـة والخؤولة وتتوثق الصلات وتشتد فيها بين أفراد القبيلة والوحدة وتبرز عندهم نزعة التعالي على الغير فتتولد الأحقاد وتتوالى الحروب وتتتالى أيام المعارك الدامية حتى تتواتر إلى أربعين سنة كما هي الحال في حربي البسوس وداحس والغبراء اللتين أُشعِلتا لأسباب تافهة. وكان سبب الحرب الأولى أن كُلَيْباً سيد تغلب قد اعتدى على ناقة للبسوس كـانت ترعى في حماه. والبسوس خالة جساس وجـارته، فثـارت ثائـرة جساس، ، وخالتُهُ تصب الزيت على النار فتزداد لهباً، حتى وجد نفسه، وهو سيد بني بكر، مضطراً إلى أن يغتال كُلَيْباً، الأمر الذي أشْعَلَ نيران الحرب أعواماً تزيد على الأربعين ولم تنته إلا بعد أن تدخل المنذر والد عمرو بن هند واصلح الأمرين المتحاربين. وسبب الحرب الثانية أن سباقاً جرى، على رهان، بين داحس، وهو جواد لسيد بني عبس، وبـين الغبراء، وهي فـرس لبني ذبيان. وعندما أوشك داحس على الفوز كمن له رجل من ذبيان وأعاق سيره فسبقت الغبراء وانتصر بنو ذبيان. فرفض سيد بني عبس أن يعترف بهذه النتيجة وطالب بقيمة الرهان المضروب فتعنت بنـو ذبيان ونشبت الحربُ عقوداً لم تنته إلا بتدخل سيدين من ذبيان هما الحارث بن عوف وهرِم بن سنان وقد تحملا ديات القتلى.

ومن مبررات هذه الحروب في الجاهلية أن العصبية القبلية المنغلقة تقضي أن يُدافِع الفردُ عن حياض قبيلته، سواء أكانت

ـ تلك القبيلة ـ ظالمة أو مظلومة، والدفاع عن الجار شرط أساسي، وواجب على كل فرد في القبيلة الدفاع عنه، من هنا برزت واضحة مهمة الشعراء الجاهليين في توضيح هذه الميزة وإبرازها في مجالات مختلفة كالكرم والوفاء والنجدة وحماية الجار والاستغاثة والعفو عند المقدرة والأنفة وإباء الضيم والعفة.

ففي الكرم نرى حاتم الطائي يقول:

إذا ما بخيل الناس هرت كلابه
وشقَّ على الضيفِ الغريب عُقُورُها

فإني جبانُ الكلبِ بيتي مُوَطَّأً
أجودُ إذا ما النفسُ شَحَّ ضميرُها

وفي العفة والكرم والشجاعة يقول عنترة مخاطباً عبلة:

يُخْبِرْكِ من شهد الوقيعة أنني
أغشى الوغى وأعِفُّ عند المغنم

فإذا شربتُ فإنني مستهلكٌ
مالي وعرضي وافرٌ لم يُكْلم

وإذا صحوتُ فما أقصرُ عن ندىً
وكما علمْتِ شمائلي وتكرمي

وفي النخوة والإقدام يقول عنترة عندما رأى فرسان قومه يتذامرون ويتلكأون:

لما رأيت القومَ أقبل جمعُهم
يتذامرون كررتُ غيرَ مُذَمَّمِ

والمتأمل في الشعر الجاهلي يرى أن هذه الخصال الطيبة والصفات الحميدة مبثوثة في ثنايا ذلك الشعر الخالد الذي يتغنى بخلود تلك الصفات. ولكن الشاعر الجاهلي، وإنسان ذلك العصر عموماً لم يكونوا غَيْرِيّين في تطبيق أحكام تلك الصفات والمميزات وإنما كانوا فَرْدِيِّين ذاتيين سواء من خلال الفرد في ارتباطه مع ذاته أو من خلال ارتباطه مع قبيلته.

وسادات القبائل فيما نرى أنهم يطبقون تلك الخصائص ويمثلونها خير تمثيل، على الرغم من إغراقهم في الذاتية، ومع ذلك يضيفون إليها صفات الحكمة والحنكة وحسن المشورة فأصبحوا مقاصد للناس في خلافاتهم ومن هؤلاء الذين جاوزت شهرتهم حدود قبائلهم: أكثم بن صيفي، وعامر بن الظرب العدواني.

وهذا لا يعني أن هذه الشمائل الإيجابية الحميدة لم يكن في الجاهلية ما يناقضها من الصفات السلبية السيئة كاستباحة الخمر والميسر والنساء ووأد البنات والغدر. ولنقرأ من شعر طرفة بن العبد هذه الأبيات ولنعرف السبب الذي من أجله أفردته قبيلته افراد البعير المطلي بالقار:

وما زال تشْرابي الخمورَ ولذتي
وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتْلَدي
إلى أن تحامتْني العشيرة كُلُّها
وأُفْرِدْتُ إفرادَ البعير المعَبَّدِ

ولــولا ثـلاث هن من عيشــةِ الفتى
وَجَــدِّكَ لم أَحْفـل متى قــام عُـوَّدِي
فمنهنّ سَبْقُ الـعــاذلاتِ بـشــربــةٍ
كُمَيْتٍ متى مـا تُعْـلَ بــالماءِ تُــزْبِـدِ
وَكَــرِّي إذا نــادَى المُضَــافُ مُحَنَّبا
كـسيــدِ الـغَضَــا نـبهـتـه المُتَـوَرِّدِ
وتقصيرُ يومِ الدجنِ والدجْنُ معجبٌ
بِبَهْكَنَـةٍ تحتَ الخِبـاءِ المُـعَـمَّـدِ

لقد جاء في القرآن الكريم ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ وفي آية أخرى ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾. والخِطاب في البداية موجه للجاهليين.

والقبيلة اجتماعياً ثلاث طبقات: أبناؤها الذين يربط بينهم النسب، وعبيدها المجلوبون شراءً أو سَبْياً، والموالي وهم عتقاؤها. والأمر كذلك بالنسبة للمرأة. فقد كانت النساء ثلاث طبقات: الشريفات والحُرّات والأماء فالشريفات لهن مكانة عالية في المجتمع القبلي. إذ كان لهن الحق في اختيار أزواجهن والابتعاد عنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن. والحُـرّات، جمع حُـرّة، فكُنّ يقمن بطهي الطعام وإصلاح الخِباء ونسج الثياب. وأما الإماءُ فقد كن يخدمن

في بيوت الشريفات، ومنهن من ترعى الإبل، وبعضهن من تشتغل في حانات الخمر، وكن في منزلة متدنية في المجتمع.

والعربي، بدوياً كان أم حضرياً، لا شيء يضيره ويثيره مثل قضية العرض؛ ويعتبر أن المرأة جزء لا يتجزأ من كيانه ويحرص عليها كل الحرص وهي شريكته في سرائه وضرائه وحتى في حروبه وفي ذلك يقول عمر بن كلثوم التغلبي:

على آثارنا بيضٌ حِسانٌ
نُحاذِرُ أن تُقَتَّلَ أو تَهُونا

فإذا كانت المرأة على هذه الأهمية عند الجاهلي فينبغي لها أن تتمتع بخصال عامة تستهوي الرجل. وأهم هذه الخصال الجمال المحلّى بالطيب والحلي والثياب الفاخرة إذ يقول امرؤ القيس:

وتضحي فتيتُ المسك فوقَ فِراشِها
نؤومُ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ

وكما يقول المنَخَّل اليَشْكُري:

الكاعبُ الحسناءُ ترْ
فُلُ في الدِّمَقْسِ وفي الحريرِ

والشنفرى يعدد صفات حبيبته أُمَيْمَة: فهي مُقَنَّعَة، تمشي بِغَنْج ودلال ولا تتلفت وراءها وهي كريمة لا تُذمّ أينما حلت كونها عفيفة وجليلةٌ. وإذا ما كلمتك فإنها تختصر لتتابع سيرها إلى غايتها وزوجُها فخورٌ بها لأنها عنوان فخره وعنفوانه.

فالمرأة عزيزة عند الجاهلي حرة فيما تريد أن تفعل شرط أن تبقى مرفوعة الرأس كريمة النسب حتى لا تجلبَ العارَ إلى قبيلتها فلذلك أبت الطبيعة الجاهلية على العربي أن يتغزل بالعذارى ولهذا كان غزل امرىء القيس «فمثلك حبلى قد تركت ومرضعاً» وقصة المنخل مع المتجردة معروفة، وقول الأعشى «وقد أخالس رب البيت غفلته» وهذا لا يعني أن التغزل كان مقصوراً على المتزوجات بل كان أجرأ عليهنّ.

الحياة الروحية في العصر الجاهلي.

إن الصفة الغالبة على عربي ما قبل الإسلام هي صفة التوحيد، ولكنه كان قليل الاحتفاء بالدين وبشتى أنواع العبادات ولا يلتفت إلى ذكر الله إلا إذا ألمت به نازلة ضيق وكرب. وأما إذا زالت عنه مصيبته وانقشع كربه فإنه يعود إلى تماديه في عبثه ومجونه. على أن التوحيد لم يكن صفة، عند بعض العرب بل كان مذهباً يُعملُ به ويُسعى إليه. وهناك مجموعة من عظماء ذلك الزمان، اتصفت حياتهم بالجدية في ممارساتهم اليومية من خلال تذكيرهم بالحياة والموت وبأن على المرء أن يتزود للحياة الأخرى. وهؤلاء الناس قبل الإسلام هم الموحدون الحنفاء الذين كانوا يبنون الحياة الخاصة والعامة على أساس الأخلاق الكريمة ويعملون بأمر العقل فينفّذون ما يأمر به وينهون عما ينهى عنه. ومن هؤلاء الأحناف: ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نُفيل، وخالد بن سنان العبسي وحنظلة بن صفوان، وقس بن ساعده الايادى، وعامر بن الظرب العدواني وزهير بن أبي سلمى، وعبيد بن الأبرص وأمية بن الصلت، والنابغة الجعدي الذي يقال عنه انه أنكر الخمر في الجاهلية وهجر الأوثان والأزلام حيث يقول:

الحـمـد لله لا شـريـك لـه
مـن لم يـقـلـهـا فـنـفـسُـه ظـلما

والحنيفية أو الدين الحنيف هو دين سيدنا النبي ابراهيم (ع) الذي جاء «على فطرة الله التي فطر الناس عليها».

ونجد الصابئة إلى جانب الموحدين. وهؤلاء كانوا يعبدون الكواكب ويعتقدون بالأنواء. وأول من دان من العرب بذلك قبائل سبأ الحميرية إذ أنهم كانوا يعبدون الشمس، وكانت كنانة من عبدة القمر. أما بنو جرهم ولخم فقد كانوا يسجدون للمشتري. وأما قريش فقد عبد أبناؤها الشِعْرَى بدليل بعض أسمائهم في ذلك: عبد شمس.

أما اليهودية فهي دين موسى عليه السلام، نسبة إلى يهوذا أحد أسباط إسرائيل الذي تناسل منه أكثر ملوك تلك الطائفة. وتُبّع الأصغر هو الذي أدخل اليهودية إلى اليمن. ومن اليهود الذين نزلوا المدينة بنو قريظة وبنو النضير. ومن دان باليهودية من العرب بنو نمير وبنو كنانة وبنو الحارث بن كعب. ولعل هذه الديانة سرت إليهم عن طريق مجاورة اليهود في تيماء ويثرب وخَيبر.

وأما النصرانية، فهي دين المسيح، عيسى بن مريم عليهما السلام، نسبة إلى الناصرة، أول قرية بث فيها المسيح دعوته مبشراً بدين الله. وقيل إن القديس لوقا أول من دعا إليها في بلاد اليمن أثناء سيره إلى الهند، وبولس الرسول أول من دعا إليها في الشام

وبَرّه. وأشهر من تنصّر من العرب بنو غسان وقضاعة وتنوخ وتغلب وطيىء وحمير، إضافة إلى انتشار المسيحية في جهات شتى بالحيرة في العراق، ومن هؤلاء في الحيرة عَديّ بن زيد العبادي.

أما الوثنيون، فكانوا الأكثرية من العرب. فقد عبدوا الأوثان زاعمين أنها تقربهم إلى الله زُلْفَى. و﴿لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ: الله﴾. ولقد قال الزمخشري بلغ عدد الأصنام حول الكعبة ثلثمائة وستين صنماً. والدلائل تشير إلى أن الوثني على العموم لم يكن يتمسك في تدينه بعقيدة ثابتة نابعة من شعور عميق، إنما هي عادات تأصلت في نفوسهم تقليداً لغيرهم وتمسكاً بسلوك آبائهم «إنا رأينا آباءنا على سُنّة وإنا على آثارِهم سائرون﴾.

علوم العرب ومعارفهم في العصر الجاهلي.

يؤكد التاريخ أن العرب الجنوبيين كانوا أهل حضارة وتقدُّم وذلك تبعاً لأنواع النشاطات اليومية التي كانوا يمارسونها في حياتهم. ولعل هذا التطور الحضاري لم يبق محصوراً في مدن اليمن بل امتد إلى واحات الحجاز فأُنشِئَت فيه مدن كثيرة كيثرب وخيبر والطائف ووادي القرى حيث عمت فيها الزراعة. وقد نمت عند سكان هذه المدن خبرات مهمة كالاهتمام بأنواع البذار، واعتمدوا أنواعاً مختلفة في أنماط الري فأنشأوا السدود وحافظوا على مواقع المياه فأحسنوا تنظيمها. كما نمت عندهم الخبرات بإقامة البيوت والمنازل التي يستلزمها استقرار الناس حول مزارعهم، فانتعشت الزراعة عندهم.

وقد اكتسب العربي، من خلال احتكاكه بالأمم المجاورة كالفرس والروم البيزنطيين، الكثير من معارف تلك الأمم التي كانت على جانب عظيم، بالنسبة لذلك الزمان، من التطور. وقد كان مرد هذا الاكتساب يعود إلى القوافل العربية التي كانت تنطلق من قلب الجزيرة العربية ، في رحلتي الشتاء والصيف، لتعود إليها وهي تحمل معها كل جديد من أنواع العلوم والمعارف كأن يأخذوا

عن الروم بعض فنون الحرب والقتال أو يعرفوا بعض أساطيرهم خصوصاً ما له شأن مهم في حياة العربي الذي أوشك أن ينفض عن نفسه غبار البداوة الفطري ليشهد العالم، آنذاك، الأشواط الحضارية التي سيندفع إليها ذلك البدوي، في ظل الإسلام وتعاليمه.

ولعل أهم العلوم عند العربي اهتمامه بالانساب والأيام لما لهذا الأمر من أهمية في حياته. ويلي ذلك في الأهمية عنده، علم النجوم، ومعرفته بمطالعها وأنوائها وأمطارها خصوصاً وأن هذه النجوم رفيقة العربي في سراه [1] حيث يهتدي بها في إرشاده إلى مبتغاه الذي لا يضل بعده أبداً. أما اهتمام العربي بالطب فهو لم يقل عن اهتمامه بالانساب والنجوم. وقد عرف في ذلك التجربة الحسية واعتمد عليها كالكي بالنار واستخدام بعض العقاقير النباتية. وقد كانوا يتداوون بالعزائم والرقى.

وأما أهم ما أثر عن العربي من علوم، علم الفراسة الذي اكتسبه من خلال معاناته مع تحديات الحياة وقساوتها في ظل ضراوة الصحراء وشراسة طبيعتها، الأمر الذي جعل الإنسان يستلهم عملية الاستدلال بأشياء ظاهرة عن أمور خفية كالقدرة على التمييز بين مشية كل من الشيخ والشاب، والرجل والمرأة والأعمى والبصير، أو كأن يعرف البعير من البعرة.

---

(١) ـ السرى: السير ليلاً.

ولقد اهتم العربي اهتماماً خاصاً بالسلاح ، كالقسي والرماح والسهام والدروع والبِيْض، وبحركات الكر والفر والطعن والضرب والاعتناق، حتى أصبح به خبيراً. وشعر الحرب عند الشاعر الجاهلي خير دليل على ما بلغوه في هذه الناحية مما يدل على حسن التدبير في أمر هذا السلاح واستخدامه في الظروف الصعبة إذ أن حياتهم مليئة بالاستنفارات الدائمة فهم إما مستعدون لغزو أو مستنفرون ضده، فمن هنا كانت علاقة العربي بسلاحه علاقة صداقة حميمة لا يمكن الاستغناء عنها.

وبما أن الأرض العربية محاطة بالبحار فكان العربي مضطراً إلى ركوب البحر عبر السفن والاتجار بواسطتها مع الهند والحبشة، مما يدل على أنه كان على شيء من علم الملاحة وهذا ما يؤكده عمرو بن كلثوم بقوله:

ملأنا البر حتى ضاق عنا
وعرض البحر نملأه سفينا

أما علم الخط والكتابة فلم يكون لينتشر بين العرب. وإنما كان موجوداً فيهم، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «كان في دولة التبابعة، وهو المسمى بالخط الحِمْيَري. وانتقل منها إلى الحيرة، ومنها لقنه أهل الطائف إلى قريش».

وأما الأمثال والحكم فقد اكتسبها العربي من عراكه الدائم مع كل ما يمكن أن يعترضه في حياته بدءاً من نفسه إلى كل ما في

الطبيعة من مؤثرات ومثيرات. والمكتبة العربية غنية جداً بالكتب التي تؤكد اهتمام العربي بالأمثال. ومن أهم هذه الكتب: «جمهرة الأمثال» للعسكري و«مجمع الأمثال» للميداني. وأهم من اشتهر بالأمثال من العرب أكثم بن صيفي ومن أقواله: مَقتل الرجل بين فكّيْه. وعامر بن الظرب ومن أقواله: رب زارع لنفسه حاصد سواه. ومن الأمثال في الشعر قول طرفة:

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة

ومـا تنقُص ِ الأيـام والـدهـرُ ينفـدِ

وأقوال الأفوه الأودي ولبيد بن ربيعة وعبيد بن الأبرص وزهير بن أبي سلمى خير شاهد على ما نقول.

وأما الخواطر في الحياة والموت فقد أولاها العربي جل اهتمامه حيث انه وضع فيها زبدة تجاربه وخلاصة حياته في صراعه مع تقلبات الدهر وتحديات صروفه التي لا أمان لها وبهذا يقول زهير:

يـا دهـر قـد أكثـرت فَجْعتنـا

بسـراتنـا ووقـرت في الـعـظم

وسلبتنـا مـا لسـت معقبنـا

يـا دهـر مـا أنصفت في الحكم

الحياة السياسية في العصر الجاهلي.

أجمع المؤرخون على أن نظام الحكم في اليمن كان ملكياً مطلقاً. ومن أشهر ملوكها، ملكة سبأ بلقيس الحميرية، صاحبة القصة المشهورة مع النبي سليمان الحكيم (ع). وأما المدن والقرى المنتشرة في شبه الجزيرة العربية فلم يكن نظام الحكم فيها كما كان في اليمن، بل كان يختلف في كل منها عن الأخرى. وفي ذلك يقول الدكتور جواد علي في كتابه: تاريخ العرب قبل الإسلام: «ويُلاحظ أن بعض المدن والقرى ولا سيما في العربية الغربية مثل مكة لم يكن عليها ملك إنما كان يحكمها عدة رجال... ولا يُلَقَّب زعيمهم والمتنفِّذ فيهم بلقب ملك. «وللملأ» وهم أصحاب الحل والعقد... ومقر حكمهم عرف بدار الندوة في مكة، وبالمزوّد عند أهل اليمن. وأن نظام الحكم في أمثال هذه المدن هو ما يقال له حكومات المدن عند المؤرخين الغربيين». أما «يثرب المدينة، حيث تنازع السلطان فيها الأوس والخزرج فقد أراد كل فريق منهما أن يكون الحكم من رجاله، وبعد جدل استقروا على أن يكون الحكم بينهما مناوبة، يحكم في كل عام زعيم من زعماء الحي الواحد، يليه في العام الثاني زعيم من الحي الثاني». ولكن بعض المدن كان يحكمها مشايخ يسمون أنفسهم بالملوك ولكنهم لم يكونوا أكثر من

مشايخ مقاطعات. وأما في العراق والشام حيث الخصب وموارد الرزق واعتدال المناخ، فقد كان فيها ملوك، ويبدو أن شكل الحكم فيها ملكياً استبدادياً مطلقاً.

أما البدو فكان النظام القبلي هو السائد بينهم. ولم يكن هناك حكومة مركزية مطلقة ترعى مصالح الناس بأجمعهم وتنفذ القانون على الجميع، إنما كانت كل قبيلة بمثابة دولة مستقلة، لها كيانها الخاص، وشعبها يتكون من أفرادها فقط، ولها وطنها الذي تحافظ عليه ويسمى « الحمى». وكان أفراد القبيلة الواحدة متضامنين متعاونين ويدينون بالطاعة لرئيس القبيلة، وهو شيخها، الذي تُجمِعُ القبيلة كلها على اختياره، وتكون رئاسته، للقبيلة، رئاسة عصبية لا شعبية، وحريتهم كانت فردية لا إجتماعية، والتزام الفرد بحقوق الجماعة والتزام الجماعة بحقوق الفرد كان مصدره تلك العصبية القبلية. ومن هنا كان المبدأ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» ومن نفس المنطلق كان الاهتمام يالانساب والاعتداد بها والتعالي على الغير وفي ذلك يقول عمرو ابن كلثوم:

ونشربُ إنْ وردْنا الماء صفواً
ويشربُ غيرُنا كدراً وطيناً.

ومن الواجب أن يكون أفراد القبيلة كثيرين ولذلك قيل: «وللكثرة الرعب». ومن أجل هذا الأمر كانت تنشأ الأحلاف إذ أن حياة القبائل العربية فيما بينها كانت أشبه بحياة شريعة الغاب «ومن لا يظلم الناس يظلم» على حد تعبير زهير بن أبي سُلمى.

ويذهب بلاشير إلى القول: «كان العربي في النظام القبلي يتأرجح بين قطبين: فردية تدفعه إلى رفع كل ضغط وتثبيت الحقوق الدائمة لنفسه تجاه الحقوق الجماعية، وتعلق، من ناحية أخرى، بجماعته بصورة عميقة قد تصل إلى حد التضحية بالنفس» والقبيلة بدورها مسؤولة عن الدفاع عن حقوق أفرادها وحمايتهم، وأما إذا خرج أحدهم على طاعة القبيل فيطردونه ويتبرأون منه أمام القبائل وفي ذلك يقول طرفة:

إلى أن تحامتني العشيرة كُلُّها
وأُفْرِدْتُ إفرادَ البعير المعبَّد

أما رئيس القبيلة، أو شيخها، فينبغي أن تتحقق فيه صفات الوقار والهيبة والغنى وسداد الرأي وبُعد النظر والطموح والحزم والإيثار والتضحية والجود والشجاعة والحلم والصبر والرزانة والثبات، وقد أحكمته التجارب بالحنكة والدهاء، حتى بات زعماء القبائل «بحكمتهم تقرر الأمور، ورب كلمة من زعيم، أو هفوة تصدر منه تثير حرباً وتسبب كارثة له ولقبيلته أو للحلف الذي يتزعمه ذلك أن أعصاب رجال البادية مرهفة حساسة تثيرها الكلمات ولا سيما إذا كانت تتعلق بالشرف والجاه».

أما الشعراء في العصر الجاهلي فكانوا ألْسنة قبائلهم يذودون عن حمى القبيلة بأشعارهم كما يذود الفرسان عن ذمار ذلك الحمى بسيوفهم ورماحهم، فتذاع الأخبار وتسجل الأمجاد في تراث خالد.

أما إثارة العصبيات القبلية الضيقة فهي التي جعلت المجتمع العربي ، قبل الإسلام ، مفككاً، ، فانعدم الأمن والاستقرار وعم القلق واستضرت العداوة حتى بـين أفراد القبيلة الـواحدة أو في بطونها المتعددة كما حدث في حرب داحس والغبراء، بين بني عبس وذبيان وهم جميعاً من غطفان .

زهير بن أبي سُلمى

(٥٢٠ ـ ٦١٠) هـ

هو زهير بن أبي سلمى، ربيعة بن رباح المُزني، نسبة إلى مُزَيْنة، بنت كعب بن ربوة، وأم عمرو بن أدّ، إحدى جدات ربيعة لأبيه. ونُسِبَتْ قبيلة زهير إلى هذه الجدة وسميت باسمها. وكانت تربط قبيلة مزينة علاقات جوار ببني عبد الله بن غطفان الذين كانوا ينزلون في الحاجر، جنوب الرياض اليوم، من أرض نجد وتحديداً شرقي المدينة المنورة حيث كان ينزل معهم بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان أخوال أبي سُلمى، ربيعة بن رباح. ولكن أبا سلمى لم يلبث أن انصرف عن أخواله الذين لم يعطوه نصيبه من الغنائم التي أصابوها من قبيلة طيء لأنه كان شريكاً لهم في الغزو فهو شريك في الغنائم، وانطلق بأمه إلى قبيلته مزينة واستوطن في الحاجر، في منازل بني مرة وبني غطفان، ثم ما لبث ربيعة أن أغار على أخواله مع نفر من الناس ولكنهم نفروا عنه وتركوه وحده حتى ألم به أخواله وبقي عندهم إلى أن توفي وهو في ريعان الشباب، تاركاً وراءه، في الحاجر، أمه وزوجته، التي كانت حاملاً وابنتيه سُلمى والخنساء. ثم لم تلبث أم سُلمى أن وضعت

طفلاً أسموه زهيراً. وولادة زهير في الحاجر، ديار بني غطفان، أشكلت الأمر على الرواة وظنوا أن زهيراً هو غطفاني النسب والحقيقة أنه غطفاني النشأة مُزَنيّ النسب بدليل قول ابنه كعب بن زهير بن أبي سلمى في الغطفانيين:

هم الأصل مني حيثُ كنتُ وإنني
من المزنيين المصَفَّيْن بالكرم

وبعد وفاة ربيعة بن رباح، أبي سلمى، تزوجت أم زهير من أوْس بن حَجَر فكفل زهيراً خالُه بُشَامةُ بن الغدير كما كفل أختيه سُلمى والخنساء. والخنساء هي غير الشاعرة المعروفة. وأما سُلمى بضم السين هي أخت زهير وابنة ربيعة وكل ما أتى بهذا الإسم فهو بفتح هذه السين الأولى منه.

وما أن تفتحت عينا زهير لتبصرا النور سنة ٥٢٠ م تقريباً حتى ملئتا صليل السيوف وقعقعة السلاح وضجيج الفرسان في تأهبهم واستنفارهم، في حرب ليس لها نهاية، حرب داحس والغبراء، فاكتسب زهير من جراء هذه الحرب، حنكة ودراية وتمرساً بشتى ضروب الحياة. كيف لا والناس حوله في حل وترحال، وكرّ وفر وتوارث ثارات وتجدّد أحقاد حتى باتوا في قلق مستمر وخوف لا ينقطع. وإضافة إلى أيام داحس والغبراء، التي دامت قروناً، فقد كانت تنشب حروب جانبية تستغلها القبائل المجاورة طمعاً بإنهاك

عبس وذبيان وسلب خيراتها. فمن ذلك ما ذكره المفضّل الضبي ، صاحب كتاب المفضليات، من أنّ بشامة بن الغدير، خال زهير، قد ترك قصيدتين يخاطب فيهما قومه ويحرضهم على أن لا يخذلوا حلفاءهم «الحرُقة» ضد بني سعد بن ذبيان. فالحياة، في أيام زهير، كما قلنا قبل قليل، قلق مستمر وخوف لا ينقطع . . . خوف من الغزو وما قد ينتج عنه من ويلات الحرب، قتلاً وسبياً وسلباً، وقلق على السعي وراء الكلأ والماء لتأمين مادة الحياة الأولى لتساعد العربي ومواشيه على البقاء.

لم تذكر كتب تاريخ الأدب القديمة ، والدراسات الحديثة، شيئاً يذكر عن نشأة زهير الأولى أكثر من أنه عاش في «منازل بني عبد الله ابن غطفان وأخواله من بني مُرّة من الذبيانيين» وفي كنف خاله بشامة بن الغدير الذي كان شاعرا مجيدا وسيدا شريفا ثريا وفي ذلك يقول ابن سلّام الجمحي : «وكان [بشامة] كثير المال وكان ممن فقأ عين بعير في الجاهلية، وكان الرجل إذا ملك ألف بعير فقأ عين فحلها». وعندما حانت المنية إلى بشامة جمع أفراد عشيرته وزهيراً، ووزع عليهم تركته قائلاً لزهير: لقد أعطيتك ما هو أثمن من المال. فقال زهير: ما هو؟ قال شعري! وكان بشامة يمتلك ما هو أهم من الشعر! ألا وهو مكارم الأخلاق التي رضعها زهير مع لبان الطفولة وهو في كنف خاله وشب عليها حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من نفسه الأبية وأريحيته العظيمة.

إضافة إلى ما ورثه زهير عن خاله بشامة من جاه وأخلاق

وشاعرية، فقد عاشر زوج أمه، أوس بن حَجَر ، الشاعر المعروف الذي كان أستاذاً للعديد من الشعـراء في أيامه، كالنابغة الذبياني مثلاً؛ ولقد أولى أوسُ زهيراً عناية خاصة لأنه توسّم فيه عـلائم النباهة والفطانة والذكاء، وجعله راويته فاستفاد زهير من ذلـك الشيء الكثير، إذ أن بصمات أوس على كل لفتة من لفتات زهير الشعرية الجميلة.

ولقد تزوج زهير من امرأة كريمة الخُلُق اسمها ليلى وكنيتها أم أوفى. وقد رزق منها زهير أولاداً مـاتوا صغاراً. ولكن حب زهير للذرية جعله يتزوج كبشة بنت عمار بن سحيم أحد بني عبد الله ابن غطفان فولدت له كعباً وبحيراً وسالماً الذي لم يلبث أن مات، في حياة أبيه، وهو بعد في ريعان الصبا، فرثاه زهير بهذه الأبيات:

رأتْ رجـلًا لاقى من العيش غِبـطةً
وأخـطأَهُ فيهـا الأمـور العـظائمُ

وشبَّ لــه فيهـا بنـونَ وتُـوبِعَتْ
سَـلامـةُ أعـوام لـه وغـنـائـم

فـأصبـح محبـوراً يُنَـظَّرُ حـولَـهُ
تـغـبُّطَـهُ لــو أنَّ ذلـك دائـم

وعندي من الأيـام مـا ليس عنده
فـقـلتُ تـعـلَّمْ إنمـا أنـتَ حـالِمُ

لعلك يوماً أنْ تُرَاعَ بفاجع

كما راعني يومَ النُّتاءَةِ سالمُ[1].

وكانت كبشةُ، زوجته الجديدة، ضعيفة الرأي، مبذرة، صلفة، فلقي منها زهير عنتاً شديداً. فأحب، وبعد عشرين سنة، أن يعود إلى أم أوفى، لنبل في أخلاقها وحسن معشرها، ولكنها رفضت لأنه آثر غيرها عليها.

ولو تتبعنا شعر زهير، في ديوانه، لوجدنا أنه يتحدث فيه عن حرب داحس والغبراء، وهو يشيد بهرِم بن سنان والحارث بن عوف لأنهما تحملا ديات القتلى بين المتقاتلين، إذ بلغت ثلاثة آلاف بعير أدياها في ثلاث سنين. ولقد أثر موقف هذين السيدين الكريمين في نفس زهير فوضع فيهما جُلَّ شعره، وخصوصاً في مدح هرِم، وهو يمتدحه طيلة حياته دون كذب أو تملق، لأنه لا شيء، عند زهير، أسمى من أن تخلِّص نفساً بريئة من براثن الحرب القبلية العصبية الغاشمة. ويظهر في معلقته، وفي غيرها من مطولاته، صدى هذه المنة العظيمة إذ يمجد هرماً ما بعده تمجيد وهرم يُغْدِقُ عليه من عطاياه السخية. ومن طريف ما يُرْوَى أن هرماً «حلف أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه ولا يسأله إلا أعطاه ولا يسلم عليه إلا أعطاه: عبداً أو وليدة أو فرساً، فاستحيا زهير مما كان يُقبل منه، فكان إذا رآه في ملأ قال: عموا صباحاً، غير هرم

(1) ـ راعه: أخافه. أفزعه.

وخيركم استثنيت». ولقد مدح زهير حصن بن حذيفة سيد بني فزارة لانتصاره مع أحلاف بني أسد على النعمان الغساني وهزمه هزيمة شنعاء. ولقد هدّد زهير كذلك الحارث بن ورقاء الأسدي بهجاء مقذع إذا لم يُعِدْ له غُلامَه يساراً، أخذه أثناء غزوته لمُزَيْنَة، عشيرة زهير، فاستجاب الحارث لتهديد زهير وأعاد إليه أمواله وغلامه يساراً بعد أن كساه وأحسن معاملته، الأمر الذي جعل زهيراً يمدح الحارث بدلاً من إقذاع الهجاء فيه.

أما إيمان زهير ومعتقده، فيعتبر الرواة أنه «كان يتأله ويتعفف في شعره» مما يدل على إيمانه بالبعث وفي ذلك قوله:

فـلا تكتُمُنَّ الله مـا في نُفُـوسِكـم
لِيُخْـفى ومهـما يُكْـتَـم اللهُ يَـعـلَم
يُؤَخَّـرْ فيُـودَع في كتـابٍ فيُـدَّخـر
ليـوم الحسـابِ أو يُعَجَّـل فـيُنْـقَم

إن الروح الأصلية التي سبرت جميع سبل الحياة لا يمكنها إلا أن تجد الحقيقة ناصعة واضحة خصوصاً فيما يتعلق بخلق السماوات والأرض وبأن الله لم يخلق الإنسان إلاّ ليودع فيه إحساساً داخلياً تعتمل فيه روح العمل الخالص ويكون الأمر كله لله. وإذا صحت نسبة البيتين السابقين إلى زهير فيمكن اعتباره واحداً من أولئك الأحناف الذين اعتبروا أن النبي إبراهيم (ع) أَوَّلُ من دعا إلى عبادة الله الواحد، وأن على الإنسان أن يُعِدّ العدةَ في

الحياة الدنيا، تُقىً وورعاً، حتى ينال الحياة السعيدة الهانئة في جنة عرضها السماوات والأرض في الآخرة.

ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا قط، أن العديد من الرواة والنقاد يعتبرون أن زهيراً كان على دين أجداده الوثنيين. وأما ما في شعره من معاني التوحيد فهي مجرد خواطر اكسبته إياها تجاربه الحياتية. وأما ما ينسب إلى زهير، من الشعر الديني فلم يُقَلْ عن لسانه الا لأن زهيراً عُرِفَ بالحكمة التي تلائم أذواق البدويين، وبالأمثال التي تنسجم مع طبيعتهم. والأصمعي، من القدماء، وهو الثبت الثقة، ينكر على زهير ما ينسب إليه من المعاني التوحيدية. وطه حسين من المعاصرين يضم صوته إلى الأصمعي في إنكار تلك المعاني إلى زهير في شعره.

أما حياة زهير الأدبية فغنية جداً من جهتين. الجهة الأولى وسطه الاجتماعي إذْ أن أباه ربيعة بن رباح كان شاعراً، وكذلك كان خاله بشامة بن الغدير وأختاه سُلمى والخنساء وزوج أمه، أوس بن حجر، والذين انصرف إلى مدحهم وأفنى معهم عمره كانوا كذلك شعراء عظماء.

وأما الجهة الثانية فهي شعره الذي انصرف إليه وهو في سن مبكرة، الشعر الذي أعطاه من نفسه كل اهتمامه حتى فاق في ذلك أبناء زمانه واقترن اسمه بأسماء شعراء عصره الكبار أمثال امرىء القيس والنابغة الذبياني وطرفة بن العبد... ولما أحس زهير أن

ملكة الشعر قد اكتملت، وأن موهبته فيه قد نضجت ، وأن أحاسيسه قد رقت وترهّفت، وأن قدرته على الإحاطة بلغة العرب وفنون الشعر قد انصقلت، انصرف بعد ذلك كله إلى قول الشعر فحلّق وغنى معه كل من يطرب بالغناء الجميل الموقع. ثم ما لبث، بعد أن تأصلت في نفسه موهبة الشعر واكتملت أدواتها، أن انصرف إلى ولديه كعب وبجير يدربهما على صقل موهبتهما الفذة. . . فكان الشعر في بيته طبيعةً وعادةً وسليقة حتى توارث الشعر من بعده ابناؤه وأحفاده وأحفاد احفاده. . . فانظر معي إلى هذا التسلسل النَّسبي في خمسة من الشعراء الموهوبين: العوّام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سُلمى. . . أولا ترى معي أن أحفاد ربيعة بن رباح قد توارثوا الشعر أبا عن جد؟ فهذا وإن دل على شيء فإنما يدل على الاهتمام العائلي بهذا الجو الشعري الجميل. ولم يقتصر اهتمام زهير على أبنائه وحدهم، في التدريب على قول الشعر، بل تجاوزهم إلى غيرهم ونخص منهم أشهرهم على الإطلاق ألا وهو الحطيئة، جَرْوَل، الذي كان تلميذاً لزهير وخريجاً عليه وراوية له، كما كان زهير قبل ذلك راوية لأوس بن حجر وخريجه وتلميذه.

«وفي أخبار زهير مع ابنه كعب ما يدل على الطريقة التي كان يخرج بها الشعراء. . . فقد كان يلقنهم شعره، ويروونه عنه حتى تنطبع في أنفسهم طريقة صوغ الشعر ونظمه، وهو في أثناء ذلك يمتحن قدرتهم بما يلقي عليهم من أبيات، ويطلب إليهم أن

يجيزوها بنظم بيت على غرار البيتْ الذي ينشده في الوزن والقافية».

وإذا كان الحطيئة قد أخذ عن زهير وتتلمذ عليه، فإن جميل ابن معمر قد أخذ عن الحطيئة، وكثير عزه قد أخذ عن جميل. . . فسلسلة الشعر متصلة بزهير من جهة النسب أو من جهة التعلُّم والرواية.

ولقد كان زهير أثيراً [1] عند أهل البادية والحجاز لأنه يمثل ذوقهم في الشعر من خلال تصوير جو البادية أصدق تصوير. وتلاميذه، إضافة إلى أحفاده، لم يخرجوا عن هذا الاهتمام لأن نتاجهم الشعري، على اختلاف مضامينه ومناهجه لم يخرج عن خط الأستاذ الأول زهير لتطويره خط أوس بن حجر.

ولقد عُمِّرَ زهير طويلاً حيث انه ناهز التسعين من الأعوام وتوفي قبل مبعث الرسول الأعظم محمد ﷺ، وقبل عام ٦١٠ هـ. فهو هنا لم يدرك الإسلام والذي أدركه فعلاً ابناه، كعب وبجير، وحسن إسلامهما.

---

(١) ـ أثيراً: مفضلاً.

ديوان زهير بن أبي سُلمى.

لقي ديوان زهير، من الاهتمـام، ما لقيتـه دواوين غيره من الشعراء المبرزين في العصر الجاهلي أمثال امرىء القيس والنابغة الذبياني وطرفة بن العبد والحارث بن حِلّزَة وعمرو بن كلثوم وعبيد ابن الأبرص وعنترة بن شدّاد وغيرهم.

وكانت طبعة ألْوَارْد (Ahlwards) أول طبعة لديوان زهير إذ نشـره في مجموعـة «العِقد الثمـين في دواوين الشعـراء الستـة الجاهليين وهم: امرؤ القيس والنابغة الذبياني وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة. ولقد استخرج الوارد هذه الدواوين من شرح الشنتمري الذي اعتمد فيها على رواية الأصمعي لشعـر أولئك الشعراء، ثم ما لبث، الوارد، أن جردها من الشرح، وقد أضاف إليها ما وجده في كتب الأدب والتاريخ من الزيادات ونشرها سنة ١٨٧٠.

وأما لندبرغ السويدي فقد نشر ديوان زهير وبشرح الشنتمري سنة ١٨٨٩ في سلسلة «طرفا العربية» وترتيب الديوان فيها الطرفة الثانية. كما طبع الديوان في مصر عدة طبعات تعتمد كلها على

طبعة لندبرغ. كما نشره، كذلك، مصطفى السقا في مجموعته «مختار الشعر الجاهلي» التي اعتمد فيها على شرح الشنتمري، وقد أضاف إليها مختصراً لذلك الشرح.

أما الأعلم البطليوسي فقد نشر تلك الدواوين الستة والتقى في شرحها مع الشنتمري و «كأنه هو الآخر عني في عمله برواية الأصمعي البصري».

ولكن المهتمين بالشعر والأدب رأوا أن يعودوا إلى رواية ثعلب الكوفي الموجودة بدار الكتب المصرية، مستعينين بنسخة تملكها مكتبة الجمعية الألمانية الشرقية، وظهر ديوان زهير بهذه الرواية سنة ١٩٤٤.

فنحن الآن أمام روايتين لديوان زهير: الأولى رواية الأصمعي البصري المشهود له بالصدق والأمانة والنزاهة في التحقق من كل ما يعرض عليه من شعر حتى يتأكد من صحة ما يصله فيدونه في مكانه. والرواية الثانية هي رواية ثعلب الذي كان يعتمد، في تدوينه للشعر، على رواية حمّاد الراوية المشهود له بكثرة الوضع، وعلى رواية ابن الكلبي الذي كان كصاحبه حماد فانعدمت الثقة بهما وبرواية ثعلب لشعر زهير، الأمر الذي يدفعنا إلى عدم الاعتماد على هذه الرواية لدراسة شعر الرجل. وإنما يقتصر تركيزنا، في هذه الدراسة، على رواية الأصمعي لأنه استقاها من حفيد زهير:

العوّام بن عقبة بن كعب بن زهير، لنزوله البصرة وقد روى فيها شعر آبائه وأجداده فيشهد بذلك شاهد من أهله وتكون رواية الأصمعي هي التي تتمتع عند النقاد بالثقة المطلقة.

ولشدة تشدد الأصمعي في التحقيق في روايته نجد أن الشنتمري ينقل عنه أنه «كان ينكر ثلاثاً منها هي: «أبلغ بني نوفل عني وقد بلغوا» و«أبلغ لديك بني الصيداء كلهم» و «ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى» وأنكر أبو عبيدة مقطوعته «إن الرزية لا رزية مثلها» ويقول انها لقراد بن حنش من شعراء غطفان. ولا يبقى لزهير بعد ذلك من رواية الأصمعي سوى أربع عشرة قصيدة ومقطوعة تضاف إليها القصيدة التي رواها المفضّل الضبّي واحتفظ بها الشنتمري وهي: «غشيت دياراً بالبقيع وثهمد» على أنه ينبغي أن نسقط من قصيدته «لمن الديار بقنة الحَجْر» الأبيات الأولى لأن حمّاد الراوية قد زادها. كما يشك الأصمعي كذلك في الحِكَم الملحقة بالمعلقة وقال: إنها لصرمة بن أبي أنس الأنصاري. ويمكن أن يكون لزهير طائفة منها اختلطت على الرواة بطائفة أخرى تماثلها نظمها صرمة».

فرواية الأصمعي لشعر زهير لم تزد على ثمان عشرة قصيدة ومقطوعة ينهيها الشنتمري بقوله «كل جميع ما رواه الأصمعي من شعر زهير» وقد ألمحنا أعلاه أن الأصمعي نفسه شك بثلاث قصائد منها، وقد ذكرنا صدور مطالعها؛ وأما رواية ثعلب فإنها تنسب إلى

زهير عشرات القصائد والمقطوعات برواية حماد وابن الكلبي المعروفين بكثرة الوضع.

فالثقة إذن برواية الأصمعي كبيرة وهي التي تدفعنا إلى الأخذ بها كأساس لدراسة شعر زهير وذلك لأن هذا الشعر متوارث بين أحفاد زهير إذ نقله العوّام إلى البصرة ونشره فيها.

الشعر عند زهير

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابنة زهير: «ما فعلت حُللُ هرم بن سنان التي كساها أباك؟ قالت: لقد أبلاها الدهر! قال: لكن ما كساه أبوك هرِماً لم يُبْلِه الدهر».

إذا كان شعر زهير قد خَلُدَ على الأيام ولم يستطع الدهرُ أن يبليه ويفنيه، كما أبلى الحلل التي كساه بها هرمٌ، فذلك يعود إلى ما في نفس زهير من العبقرية الفذة في فن الشعر من ناحية، وإلى ما يحمله هذا الشعر من صدق وشفافية من ناحية ثانية.

فعبقرية زهير الشعرية من خلال شعره تتحدد في إمكانية استلهامه المنهج المستقيم الواضح الذي تتلمذ فيه على كل من أوس بن حجر، زوج أمه، الذي أولاه عناية خاصة به وجعله راويته، وعلى روايته شعر طُفَيْل الغَنَوِي المعروف ببراعته في وصف الخيل والصيد، وعلى روايته كذلك لشعر خاله، بشامة بن الغدير الذي تعهد زهيراً، تربية ورعاية إلى أن أصبح واحداً من أعلام الشعر المعدودين في ذلك العصر.

ولم تقتصر تلمذة زهير على رواية شعر هؤلاء الفطاحل، وعلى إرشاداتهم القويمة له في فن الشعر وحسب، بل تجاوزها إلى كل ما

كان يدور على ألسنة الناس في الجاهلية من شعر، إذ أن الشعر قديماً كان ديوان العرب الذي يستأنسون به. . . وما أن يُنْظَمَ بيتٌ من الشعر أو قصيدة جيدة حتى تشيع وتصبح في قليل من الوقت على كل شفة ولسان.

وأما الصدق الذي يحمله شعره فيمكن تحديده واستخلاصه من خلال استعراض الأغراض الشعرية التي تناولها هذا الشعر نفسه.

وزهير ابن بيئته. ولم نر أنه قد تخلف عن الاحتفاء بكل ما كان يدور فيها من تحركات تفرضها طبيعة الحياة البدوية في الصحارى الواسعة والبوادي المترامية.

ولعل زهيراً، في تعامله مع هذه البيئة، شديد الاعتماد على الحواس في إخراج صوره الشعرية، كأستاذه أوس بن حجر، بل هو أحرص منه على هذا لأنه يتخذ من ذلك طريقاً إلى وصف المعاني. وهو بهذا العمل يتخذ من الشعر فناً وصناعة إذ أنه لا يندفع فيه على سجيته، فهو الشاعر المصور المدقق بأصح معاني الكلام. ويعتبر الدكتور طه حسين أن زهيراً اعتمد في نظم الشعر إلى الفطرة ولكنها كانت مقيّدة لأنها كانت إرادية بحيث ان الكلام معها لا يخرج على سجيته. وقد اتخذ زهير من هذا التقييد للفطرة، قاعدة لفنه الشعري في مقاومة الطبع، وعدم الاندفاع في قول الشعر مع السجية التي ترسله إرسالاً فتفيض به كما يفيض الينبوع بالماء وهو يحمل معه كل شيء مما حسن وقبح . . .

هذه المقاومة في تقييد الفطرة هي التي حملت شاعرنا على أن «يعمل شعره ويتكلفه» وهي التي جعلت الرواة يصفون زهيراً وأبناء مدرسته، في الصناعة اللفظية، ككعب والحطيئة ومسلم بن الوليد وأبي تمام والمتنبي، بأعمال الروية والأناة في قول الشعر. ومما يؤكده الرواة أن زهيراً «كان كثير التنقيح والتهذيب لشعره حتى زعموا أنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر وينقحها في أربعة أشهر ثم يعرضها على أصحابه في أربعة أشهر فيتم له ذلك في حول (عام) كامل. من أجل ذلك سميت قصائده بالحوليات».

وتفسير ذلك، وانسجاماً مع رأي الدكتور طه حسين، أن زهيراً ينظم الشعر على السجية عندما تنتابه هزة وجدانية تحرك نفسه وتثير أشجانه وتدفعه إلى نظم الشعر فتسيل مع تلك التجربة وتنطلق على فطرتها وتتم القصيدة مقيَّدة بعمق التجربة الشعورية التي هزته لأول مرة، ثم لا يلبث بعد عملية النظم أن يعمد إلى إعمال الروية والصقل، ثم إلى أخذ رأي الجماعة نقداً وتقويماً. . . فتكون القصيدة، مع ما تحمله من الصنعة، على شيء من البساطة. . . ويكون هذا الشعر نسيجاً وحده في لفظه وتراكيبه الأمر الذي دفع النقاد والرواة إلى القول: ان زهيراً صنع سبع حوليات في سبع سنين. وفي ذلك يقول الجاحظ: «كان زهير بن أبي سلمى يسمي كبار قصائده الحوليات، ولذلك قال الحطيئة: خيرُ الشعر الحولي المحكك (يقصد استاذه زهيراً). وقال الأصمعي: زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر،

وكذلك كل من جوّد في شعره، ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يُخْرِجَ أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة». ثم يقول الجاحظ أيضاً في غير هذا الموضع: «القصيدة تمكث عنده (زهير) حولاً كريتا [1] وزمناً طويلاً يردد فيها نظره ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه، اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه، فيجعل عقله زماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره، إشفاقاً على أدبه وإحرازاً لما خوله الله من نعمته، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات المنقحات والمحكمات، ليصير قائلها فحلاً خنذيداً [2] وشاعراً مفلقاً».

أما الدكتور شوقي ضيف فيعلق على هذه الآراء قائلاً: «وسواء سمى زهير قصائده الطويلة بالحوليات أو سماها الرواة بهذا الاسم فإن هذه التسمية تدل على مدى ما أحس به القدماء تلقاء مطولاته .. وتصوروا أن هذا الجهد يستنفد آماداً بعيدة، وتخيلوها حولاً كاملاً».

وأما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد قال: «زهير شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر ولا يمدح أحداً إلا بما فيه» هذا في الأغاني وأما في العمدة لابن رشيق القيرواني فقد ورد قول عمر ان زهيراً «لا يعاظل بين الكلام ولا

---

(١) ـ كريتا: كاملا.

(٢) ـ خنذيداً: تاماً.

يتتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه». وبهذا يقول ابن سلّام الجمحي كذلك «كان زهير أحصفهم (الشعراء) شعراً وأبعدهم من سخف وأجمعهم لكثير من المعاني في قليل من المنطق».

ولا ضير في كل ما قيل في شعر زهير، فإن صفة تجويده والاعتناء به ماثلة أمام المتبصرين الممعنين في ثنايا هذا الشعر نفسه.

أما الطريق التي سلكها زهير، في شعره، فهي طريق التصوير الحسي المادي الذي يعتمد على التشبيه والاستعارة والمجاز في إظهار ما تلحظه الحواس وتتأثر به النفوس وتهتز طرباً ويكون الفن للفن في إبراز الصور الشعرية الخالدة. وزهير حين يندفع وراء سجيته الفطرية المقيدة بالأناة والروية والتجويد يجعل من الشعر فناً وصناعة حيث انك تجد نفسك، وأنت تقرأ شعره، أمام صنّاع ماهر يحذف فن الكلام في رسمه لصوره ومعانيه الدقيقة الجميلة. فهو في كل ما بين أيدينا من نظم، لم يقصد التصنع لذاته، وإنما فرضته عليه ظروف تجربته الشعرية الخاصة التي كانت قد اعتملت في نفسه، إضافة إلى مرا[illegible] لظروف بيئته العامة التي كانت سائدة في أيامه.

أما الأغراض الشعرية التي يمكن رصدها عند قراءة شعر زهير فهي تكاد تكون الأغراض نفسها التي تطرق إليها معاصروه في شعرهم. وإذا تأملنا أية قصيدة من مطولاته، إضافة إلى معلقته، نجد أنه يبدأها بذكر الديار، عموماً، والتغزل بذكر قاطنيها من

الأحبة، إلى وصف حسي للطبيعة وما عليها من جماد وحيوان، ووصف دقيق لعمليات الطرد والصيد حتى يصل في ذلك أو ينفذ منه إلى مدح من ينصرف إليه بكليته وهو موضوع القصيدة، إضافة إلى ما يتخلل ذلك من هجاء ورثاء وخمر وندم ولامبالاة ورد عتاب وحكمة جليلة مستقاه فرضتها عليه ظروف البادية الصعبة التي تدعو إلى التأمل والاستبصار، وذلك بأسلوب وصفي جلي سهل المنال وبأبسط سبيل.

الغزل في شعر زهير.

الغزل في شعر زهير كالغزل في شعر غيره من شعراء عصره الذين كانوا يقصدون إليه كتوطئة للوصول إلى الغرض الأساسي موضوع القصيدة الذي يرمي إليه الشاعر. وإذا كان زهير يتفق مع أولئك الشعراء على النموذج المحتذى في العادة والتقليد فإنه يختلف معهم على الشكل والمحتوى إذ أنه رسام ماهر لصوره ومجسد حاذق لمعانيه حتى في فن الغزل نفسه.

ولو تتبعنا زهيراً في مطالع قصائده لوجدنا أنه كان غير شغوف بهذا اللون من الشعر في التعبير عن المعاناة التي يحسها الإنسان تجاه من يحب ويعشق من النساء، وخصوصاً أن هذا الشعر الذي بين أيدينا يدل على أن صاحبنا، زهيراً، قد تجاوز عهود الصبابة وأصبح ميالاً إلى إعمال العقل والروية فيما يقوله لأن عهود الصبابة، بالنسبة إليه، قد ولت فضرب عنها صفحاً لينصرف إلى الإعراب عن مكنونات النفس تجاه الإنسان المثال الذي تمتلىء به النفس إعجاباً واعتداداً كهَرِم بن سنان ومن حذا حذوه وسار على منواله كالحارث بن عوف وحصن بن حذيفة بن بدر، فامتلأت نفس زهير بهؤلاء إعجاباً وفاضت قريحته في مدحهم شعراً خَلُد على

الأيام كما خَلُد فيما بعد شعر المتنبي في بني حمدان. وزهير في هذا المطلع مثلاً:

صحا القلبُ عن سلمى وقد كاد لا يسلو
وأقفر من سلمى التعانيق فـالثقْلُ(١)

فهو هنا، وكما يظهر من خلال مدلولات الكـلام، لا يتغزل للغزل وإنما هذا أمر دعته إليه الضرورة وجرياً على التقليد السائد، وهو مع ذلك، يتحدث عن صحوة القلب وهو لم يخلُ من السلو وألم الحب رغم تواتر السنين على قلبه المرهف، ورغم أن أماكن المحبوبة قد خلت من صاحبتها. فصحوة قلبه هذه، ما هي إلا دليل على وجوب الانقطاع عن الصبابة والهوى من ناحية واندفاع إلى الرحاب الواسعة التي يدفعه إليها كبر سنِّهِ وتراكم السنين عليه لينصرف إلى أمور يقتضيها كبره وحشمته إذ أنه أصبح إنساناً متزناً رصيناً ولا يحسن به الانصراف إلى اللذادة والتشبب بالنساء كما كان في صباه. وزهير من خلال الصورة المرسومة في هذا البيت لا يصور حباً ولا عاطفة وإنما يظهر عبقرية فذة في فن الشعر الغزلي.

ولننظر إليه من خلال هذه الأبيـات التي يضمنها العـديد من التشبيهات:

---

(١) ـ التعانيق والثقل: مكان في منازل غطفان في الحاجر.

تنـازعهـا المهـا شبـهـاً ودُرُّ الـنـ
حُـورِ وشـاكهتْ فيهـا الـظبـاءُ[1]
فـأمـا مـا فُـوَيْقَ العِـقْـدِ منهـا
فمن أدْمـاءَ مـرتـعُهـا الخـلاء[2]
وأمـا المُقْـلتـان فَمِـن مَـهَـاةٍ
ولـلدُّرِّ الـمَـلاَحـةُ والـصـفـاء[3]

ألا ترى ، قارئي ، أن زهيراً في هذه الأبيات ، لا يصور رحباً ولا عاطفة وإنما يحاول أن يعبر فيها عن قدرة عالية بارعة في وصف النساء في شعره حيث أكثر من التشبيهات ، فهي ثلاثة ، جمعها في البيت الأول ، إذ شبه صاحبته بالمها والدر والظباء ، ثم ما لبث أن نشر هـذه التشبيهات فجعـل ما فـويق العِقد للظبـاء ، والعيون للمهاة ، والصفاء والملاحة للدر ؛ وهذا ما يؤكـد أن زهيراً كـان «يحقق صـوره ، ولم يكن ، في هذا التحقيق ، يعتمـد على اللغـة وحـدهـا ، بـل كـان يعتمـد ، قبـل كـل شيء عـلى أن تكـون الصورة واسعة هذه السعة التي تتضمن التفصيل والتفريغ وكأنـه يريد أن يحمِّلها أكثر طاقة ممكنة في التعبير والتمثيل. وكان لزهير

(١) ـ المها : بقر الوحش ، الواحدة مهاة . أراد أن يقول : فيها شبه من المها في حسن العيون . وفيها شبه من الدر في صفائه وملاحته . شاكهت : شابهت أي أنها أي الحبيبة شابهت الظباء في طول عنقها .

(٢) ـ فويق العقد : كناية عن العنق . الأدماء الظبية البيضاء . الخلاء : الموضع الخالي .

(٣) ـ المقلتان : العينان . الملأحة : الجمال .

مهارة خاصة في استخدام العبارات المثيرة التي تجعل المنظر كأنه يتحرك تحت أعيننا». فهذه الصورة تؤكد أن صاحبها لم يكن كلفاً بحبيبته بقدر ما كان شغوفاً بإظهار صورته كاملة في حدود إطارها الفني الجميل الذي رسمه لها. ومما يدل على قولنا هذا قوله:

فصَرِّمْ حَبْلَها إذ صَرَّمَتْهُ
وعادى أن تلاقيها العداء[1]

نشعر هنا أن زهيراً يجرد من نفسه شخصاً يخاطبه ويأمره بقطع الحبل بينه وبين حبيبته لأنها هي التي أظهرت العداوة وبدأت عملية القطع... والبادىء أظلم... فكأن زهيراً هنا يحاول أن يكبح جماح نفسه التي تأمره بالتصابي في حين أن كرامته تأبى عليه ذلك، فلماذا لا يصرف أمره عنها وهي تتمادى في منع نفسها عنه وإظهار العداوة؟ فتصوير زهير، لحبيبته التي تظهر له العداء وقد قطّعت ما بينها وبينه من حبال المودة ، ما كان إلا لأن موضوع الجمال عند تلك المرأة قد أثّر به فوجد نفسه مدفوعاً إلى أن يرسمه ويتقصى جوانبه حتى أتت صورته على هذا الجانب من الجمال، بصرف النظر عن صدق عواطفه نحو صاحبة هذا الجمال، إذ انه ما كان ليتودد لها لولا عاطفة حب دفينة تعتمل في نفسه.

ومهما يكنْ الرجل متزناً مترصناً فإنه لا يستطيع أن يخفي آلام الهجر والصدود إذ يقول:

---

(١) - صرِّم: أمر بمعنى اقطع ما بينك وبين المحبوبة من أسباب العشق إذ انها هي التي قطعته بمفارقتها لك. عادى: منع. العداء: المانع.

وقد كنت من سلمى سنين ثمانياً

على صير أمر ما يُمِرُّ وما يحلو(1)

وكنتُ إذا ما جئتُ يوماً لحاجةٍ

مضَتْ وأجمّت حاجةُ الغد ما تخلو(2)

وكلُ محبٍ أحدثَ النأيُ عنده

سلوَّ فؤادٍ غيْر حُبِّك ما يسلُو(3)

فهو في هذه الأبيات يشكو ألم الصدود والهجر، ولكن قلبه قد صحا من هذه اللوعة التي عذبته أعواماً، ثم لا يلبث أن تعاوده الذكرى ويضيق بها ذرعاً فيقول:

تأوبني ذكر الأحبة بعدما

هجعتُ ودوني قُلَّةُ الحزْنِ فالرَّمْلُ(4)

فأقسمت جهداً بالمنازل منْ مِنىً

وما سُحِقَتْ فيه المقادم والعمَل(5)

---

(1) ـ على صير أمر: على طرف الأمر وما يمكن أن يصير إليه في منتهاه.

(2) ـ أجمّت حاجة الغد: أي دنت وحان وقوعها. ما تخلو: أي لا يخلو الإنسان من حاجة ما تراخت مدته. وكنى بالغد عما يستأنف من زمانه.

(3) ـ أراد أن كل حبيب بعد عن حبيبه سلاه وهو ليس كذلك.

(4) ـ تأوبني: أتاني مع الليل. القلة: أعلى الجبل. الحزْن: فاغلظ من الأرض.

(5) ـ منى: موضع في مكة. سُحِقَتْ: حلقت. المقادم: واحدها مقدم: أيَ مقدم الرأس.

لأرْتَحِلَنْ بالفجر ثم لَأَدْأَبَنْ
إلى الليل إلاّ أن يُعَرِّجَني طِفْلُ[1]

ولكن ذكر الأحبة، هذا، أتاه في الليل، وبينه وبَيْنَهُنَّ مسافات بعيدة، فنهض من مضجعه مقسماً أن يتابع سيره في الصباح، إلاّ أنّ ناقته قد وضعت فصيلها ومنعته عن متابعة سيره إلى من يحب من قوم هرم بن سنان وهم خير حيي من معد.

فمن خلال هذه الأبيات يتبين أن الغزل لم يكن عند زهير غرضاً من الأغراض الشعرية قائماً بذاته، وإنما كان ذلك عادة جرى عليها شعراء عصره - كما ذكرنا مراراً - ومرد ذلك أن زهيراً لم يستعجل إلى السكون والراحة إلى الليل، وقد عزم على الرحيل، صباحاً، إلاّ لطموحه لأنْ يلتقي بسادات الناس من آل غطفان، دون أن نرى أنه تعمّل عاطفة أو تكلف تعباً لأن جُلَّ همه، قد تركز على إبراز صفات الممدوح، ولم تظهر في خلال ذلك أية عاطفة تذكر تجاه حبيبته أو أسفاً على صدودها عنه، اللهم إذا استثنينا هذه المسحة من الحزن نراها في بعض مطالعه وقد فرضتها عليه حاجة القصيدة الجاهلية إلى ذلك.

فانظر إليه وهو يصور دموع الحب:

---

(١) - أداب: أجد في السير. يعرجني: يحبسني ويمنعني.

كأن عيني وقد سال السليل بهم
وعَبْرةٌ ما هُمُ لو أنهم أمم[1]
غـربٌ علـى بَكْـرَةٍ أو لؤلؤٌ قلقٌ
في السِّلْك خان به ربُاته النَّظْمُ[2]

فالأحبة قد ساروا بعيداً وزيارتهم أصبحت مستحيلة لبعدهم عنه فتساقطت لذلك دموعه تساقط حبات الماء من الغرب أو كتساقط حبات اللؤلؤ عند انقطاع سلك العِقد. فصورة الدموع عند زهير هي صورة حسية فنية أكثر منها صورة عاطفية تؤثر في الآخرين، وما ذلك إلا لأن زهيراً شاعر حاذق يعرف كيف يصور دموع المحبين.

وفي القصيدة القافية التي مطلعها:

إن الخليطَ أجدَّ البَينَ فانْفَرَقا
وعُلِّقَ القلبُ من أسماءَ ما عَلِقا[3]
قامت تراءى بذي ضالٍ لِيُحْزِنَني
فأصبحَ الحَبْلُ منها وَاهِناً خَلِقا[4]

(١) ـ السليل: اسم واد. سال بهم: ساروا فيه. عبرة ماهم: ما زائدة: أي هم سبب بلائي. الأمم: القصد والقرب. أي لو كانوا قريبين لكنت أزورهم.

(٢) ـ الغرب: الدلو تُسقى بها الإبل. السلك: الخيط. النظم: جمع نظام وهو الخيط. وقوله خان رباته: أي انقطع.

(٣) ـ الخليط: المخالط لهم في العيش أي معاشرهم. أجد: اجتهد. البين: الفراق. انفرق: انقطع.

(٤) ـ تراءى: تبدو، تتظاهر. الضال: السِّدر وهو نوع من الشجر.

بجيدِ مُغْزِلَةٍ ادماءَ خاذِلَةٍ
من الظباء تراعي شادناً خَرِقًا[1]
كأنّ رِيقَتها بعد الكرى اغْتُبِقَتْ
من طِيِّب الرّاح لما يَعْدُ أن عَتُقَا[2]
شجّ السقاةُ على ناجُودها شَبِماً
من ماءِ لينة لا طَرْقا ولا رَنِقا[3]

نرى من خلال هذه الأبيات أنه يشبه جيدها بجيد ظبية بيضاء، فامتلأ قلبها بحب ابنها، فهي كلفة به عاكفة عليه، كما يشبه ريقها بخمر قد مُزِجَتْ بالماء البارد لحدتها حتى تسلس على الشاربين. وهاتان الصورتان أريدتا لذاتهما، وتدلان على مهارة زهير في فن التصوير المادي المحسوس الذي لا يخاطب العين فقط بل يتعداها إلى الأذن أيضاً.

وزهير دائماً يكرر أن قلبه قد صحا عن حبه وأنه قد راجع نفسه فامتنعت عن الهوى في مثل قوله:

---

(١) المُغزِلة: الظبية ذات الغزال. الجيد: العنق. الأدماء: البيضاء. الخاذلة: التي خذلت القطيع وانصرفت إلى ولدها. الشادن: الذي قوي على المشي. الخرق: اللاصق بالأرض.

(٢) -يعدو: يجاوز. الاغتباق: شرب الخمر في العشي.

(٣) ـ الناجود: أول ما يخرج من الخمر وقيل كل إناء توضع فيه الخمر. الشبم: الماء البارد. لينة: اسم بئر بطريق مكة. الطرْق: ما بالت فيه الإبل وبعرت. الرّنق: الكدر والوسخ. شج: صب.

لقــدْ طــالبْتُهــا، ولـكــلِّ شـــيءٍ
وإن طــالــتْ لجــاجتُــهُ انـتـهــاءُ

وهو بهذا كمن يترسم فنه مستقصياً موضوعـه، غير مهتم في غزل أو في حب أو في إظهار عاطفة نحو المعشوق وإنما كان يؤكد في ذلك براعته الفنية الخـاصة حيث انـك تراه في معـظم مقدمـاته لقصائده قد أكثر من وصف الظعن وتنقـلات الأحبة وصورهن ، وهو مع هذا كله يتلافى أسلوب امرىء القيس، في وصف الحب والصبابة، كما يتلافى أسلوب غيره من الغزلين المعروفـين الذين يجعلون من شعر الغزل موضوعاً قائماً بذاته وغرضاً يسعون إليـه ويعيشون معاناته. وزهير، في عملية التقصي والإحاطة بعنـاصر صوره كاملة، إنما يريد، كما قال شوقي ضيف «أن يحفر الصورة في أذهاننا حفراً».

ولو أعدت النظر مليّاً بـالمقطع السـابق من قصيدتـه القافيـة لوجدت أنه يشبه جيد حبيبته أسماء بجيد الظباء لجماله، ويجسد عندها عاطفة الأمومة لاعتكافها على ولدها، وهو لا ينسى ريقها الذي يشبه الخمر التي تصب عليها المياه الباردة لتزداد طيباً فيجد الشاربون معها لذة وأنساً. فزهير، في تقصيه لصـوره الغزليـة، مصور بارع خاطب آذاننا بما نراه عنده من اللوحات الغـزلية الجميلة والمعاني المجسدة السامية.

وإذا تابعنا قراءة قصيدته الآنفة الذكر فماذا نرى؟ :

مـا زِلْتُ أرمُقُهم حتّى إذا هَبَطَتْ
أيدي الرُّكابِ بهم من راكِسٍ فَلَقَا[1]

دانيـةً من شَـرَوْرَى أوقَفَـا أَدَمٍ
يسعى الحُداةُ على آثـارِهم حِزَقَـا[2]

كـأن عـينيّ في غَـرْبيْ مُـقَتَّـلَةٍ
من النَّواضِحِ تسقي جنةً سُحُقَا[3]

تَمْطُو الرِّشاءَ فتجري في ثِنَـايتِهـا
من المَحـالةِ ثَقْبـاً رائـداً قَلِقـاً[4]

لهـا مَـتَـاعٌ وأعـوانٌ غـدَوْنَ بـه
قِتبٌ وغَـرْبٌ إذ ما أُفْـرِغَ انسحقا[5]

وَخَلْفَهَـا سَـائقٌ يحـدو إذا خَشِيَتْ
من اللُّحاق تَمُدُّ الصُّلْبَ والعنقا[6]

---

(١) ـ أرمقهم: انظر إليهم. الركاب: الإبل. راكس: اسم واد. الفلق: المطمئن.

(٢) ـ شروري وأدم: موضعان. الحزق: الجماعات وواحدتها حزقة.

(٣) ـ المقتلة: المذلل بالعمل. الجنة: البستان. السُحق: واحدتها السحوق: النخلة الطويلة الفروع والجرائد.

(٤) ـ تمطو الرشاء: تمد الحبل. الثناية: الحبل الذي يصل القتب بالدلو. المحالة: البكرة. الرائد: الذي يجيء ويذهب. القلق: الذي لا يثبت ويستقر.

(٥) ـ القتب: أداة الدلو المستقر عليها. الغرب: الدلو. انسحق: مضى وبعد سيلانه.

(٦) ـ الصلب: الظهر. يحدو يغني. خشي: خاف.

وقــابِــلٌ يَـتَــغَــنَّى كــلما قَــدَرَتْ
على العَرَاقِ يــداه قــائــماً دفقــا[1]
يُجيلُ في جَدْوَلٍ تَحْبُــو ضَفادِعــه
حَبْوَ الجَوَاري تَرَى في مائِهِ نُطُقــا[2]
يَخْرُجْنَ من شَرَبَــاتٍ مــاؤهــا طَحِلٌ
على الجُذُوعِ يخَفْنَ الغَمّ والغرَقا[3]

ألا نرى أن الشاعر في هذه الأبيات يترقب الظاعين ويتأمل رواحلهم وهي تحط في وادي راكس، والحُداة يسيرون خلفهم جماعات ، وهو يتبعهم ببصره وهم أبعد من أن ينال منهم طرْف، فيتملكه اليأس والحزن وتنهلُّ دموعه في غير انقطاع، حتى تكاد ـ هذه الدموع ـ لشدة انهمارها تسقي جنينة باسقة الأغصان. . . ثم نراه حالاً لا يلبث أن ينصرف إلى الوصف الذي يتخلص منه إلى الممدوح وينسى بذلك حبه وعواطفه تجاه المحبوب.

فالشاعر في هذه الأبيات، مع ما تحمله من صور وأخيلة، لم يقصد فيها ولم يشر إلى أن عاطفة جياشة قد دفعته إلى وضع هذه الصور لعلاقة حميمة تربطه بالمحبوبة، وإنما نراه قد قصد إلى هذه

(١) ـ القابل : الذي يتلقى الدلو ويصب ما فيها. العراق : مفردها عرقوة خشبة في فم الدلو يشد بها الحبل. قدرت : وصلت وقبضت.

(٢) ـ يميل: يصب. الحبو: الوثب. النطق: الطرائف التي تعلو الماء.

(٣) ـ شربات: واحدتها شربة: حويض كالمعلق حول النخلة لصب ماء الري فيه. طحل: أخضر يميل إلى الغبرة.

الصور لذاتها لتأكيد براعته في فنه الخالص وكأنه ما رسم صوره إلا ليرسم فأبدع في كل ما رسم.

ومن خلال شعر زهير نرى أن هذا الشعر قد وُضِعَ خلال حرب داحس والغبراء وبعدها، وخصوصاً بعد أن دفع هَرِم بن سنان والحارث بن عوف ديات القتل من الفريقين. وأما شعره قبل ذلك فلم يصل إلينا شيء منه يذكر. ومن المحقق أن هذا الشعر الذي أوصله الرواة إلينا، من شعر زهير، قد نظمه صاحبه بعد أن تقدمت به السن وعركته الحياة ولم يعدْ خليقاً به أن ينصرف إلى الصبابة ويصرف من أجلها وقته. فانظر إليه من خلال الأبيات التالية:

صحا القلبُ عن ليلى وأقصرَ باطِلُهْ
وعُرّيَ أفْراس الصِّبَا ورَوَاحِلُه(١)

وأقصَرتُ عما تَعْلَمين وسُدِّدَت
عليَّ سِوَى قصدِ السبيلِ مَعَادِلُهُ(٢)

وقالَ العَذَارى: إنما أنْتَ عَمُّنَا
وكان الشَّبابُ كالخَليطِ نُزَايِلُهُ(٣)

فأصْبَحْنَ لا يَعْرِفْنَ إلا خَليقَتِي
وإلا سَوَادَ الرَّأسِ والشيب شَامِلُهُ(٤)

---

(١) - أقصر: كفّ.

(٢) - مما تعلمين: أي كففت عما عهدتني فيه من الصبابة.

(٣) - الخليط: الصاحب: المعاشر. نزايله: نفارقه.

(٤) - خليقتي: أي خُلُقي، أخلاقي وحشمتي.

فتراه هنا يُعْرِضُ عن اللذة ويُقصرٌ عن اللهو والعبث والمجون، ويقبل على الجد دون أن يكون عنده رغبة فيه، وإنما يفعل ذلك لأنـه مقصر وعاجز عن ممارسة كل متاع الحيـاة. فالشيب وكبـر السن أمران قد صرفا عنه العذارى اللواتي آذينه بهذه العبارة «إنما أنت عمنا» وبمثابة والدنا الذي ليس له عندنا سوى مكان التقدير والاحترام من أجل ذلك نزعم أن زهيراً لم يقل غزلاً حباً بالغزل والتشبيب ولم تكن غايته إظهار المتعة الحسية في صوره الغزلية وإنما كان الأمر عنده صناعة . . . والجودة في هذه الصناعة التي تساعده على أن ينفذ منها إلى غرضه الأساسي فيما قاله من شعر.

أما الطريق التي سلكها زهير في غزله فهي طريق الوصف المادي والتشبيه الحسين في كل أوصافه. فانظر معي إلى الأبيات الأخيرة السـابقة: ففي البيت الأول نرى أن أصحاب البيـان والصناعـة اللفظية قد شغفوا به كثيراً إذ جعل للصِّبا افراساً ورواحل، كان يركبها حين كان الشباب يؤاتيه، وعندما أدركه الكبـر امتنع عن ذلك كله وعرى أفراس الصبا ورواحله لأنها لا تعينه على رواح أو غدو للوصول إلى المحبين. ثم انظر إليه في البيت الثاني كيف شبه الشباب بالخليط، ثم كيف التفت في البيت الرابع إلى رأسه وقد شمله الشيب ولم يعدْ له بدٌ من أن ينصرف إلى الجد لأن خُلُقه يأبى عليه حياة اللهو والصبا التي يحن إليها.

الوصف في شعر زهير

قلنا في أكثر من موضع، إن زهيراً، في شعره فنان مبدع ورسام حاذق قادر على أن يحفر الصورة في أذهاننا حفراً، وهو يعتمد في ذلك كله على إحساسه المرهف بحقيقة الأشياء التي يعايشها، فتتناولها حواسه ومنطقه بالعرض والتنسيق فتظهر أمامنا لوحاتٍ فنية مؤثرة رائعة الجمال.

ولنقرأ هذه الأبيات بإمعان:

وغَيْثٍ من الوَسْمِيّ حُوّ تِلاعُهُ
أجابَتْ رَوابيه النِّجا وَهَواطِلُهْ[1]

هَبَطْتُ بمَمْسُودِ النَّواشِرِ سابحٍ
مُمَرٍ أسِيلِ الخَدِّ نَهْدٍ مَراكِلُه[2]

---

(١) ـ الغيث: المطر. الوسمي: أول المطر. الحو: الشديد الخضرة. التلاع: مجاري المياه. النجا: الواحدة نجوة: المرتفع من الأرض. الهواطل: السحائب الماطرة.

(٢) ـ الممسود: الشديد. النواشر: أعصاب الذراع. الممر: المفتول. أسيل: سهل. النهد: الضخم. المراكل: القوائم.

تميم فَلَوْنَاهُ فَأُكْمِلَ صُنْعُهُ
فَتَمَّ وعَزَّتْهُ يَدَاهُ وَكَاهِلُه[1]
أمينٍ شَظَاه لم يُخَرَّقْ صِفاقُهُ
بِمِنْقَبَةٍولَمْ تُقَطَّعْ أبَاجِلُه[2]

فماذا نلاحظ في هذه الأبيات؟ أفلا نرى صورة النبات الغض الذي صدر عن المطر الوسمي، فملأ هذا النبات الأخضر كل المرتفعات والمنخفضات مما جعل الناس، والشاعر معهم، يندفعون إلى الطبيعة الغناء يشاركونها تلك البهجة على ذلك البساط الجميل؟ . كما تحمل هذه الأبيات صورة الجواد الذي أقبل به الشاعر في أصحابه إلى تلك الجنة، وهم يريدون الطرد والصيد،والجواد مع هذا محكم الخلقة أشد الإحكام، وقد فطموه منذ مدة قصيرة وتعهدوه بالعناية والرعاية، وهو كذلك نشيط أشد النشاط لأنه لم يتعرض لمرض أو لعلة تعيق نشاطه ومرحه.

ولننتقل من وصق الغيث ووصف الجواد إلى جوّ آخر في رحاب هذه القصيدة:

---

(١) - تميم: تام الخلقة. فلوناه: فطمناه. عزته: عليت عليه: نسبته. الكاهل: بين الكتفين أسفل.

(٢) - الأمين: القوي. الشظى: عظيم صغير لاصق بالذراع. الصفاق اسفل البطن. لم يخرق: غير مريض. المنقبة: حديدة البيطار التي ينقب بها. الأباجل: الواحد أبجل: عرق في اليد.

فبينا نُبَغّي الصَّيْدَ جاء غُلامُنا
يدِبُّ ويُخْفِي شَخْصَهُ ويُضائلُهُ[1]
فقال: شِياهٌ راتِعاتٌ بِقَفْرَةٍ
بِمُسْتَأْسِدِ القُرْيانِ حُوٍّ مَسَائِلُه[2]
ثلاثٌ كَأَقْواسِ السَّراءِ ومِسْحَلٌ
قد اخْضَرَّ من لَسِّ الغَمِيرِ جحافله[3]
وَقَدْ خَرَّمَ الطُّرَّادُ عنه جِحَاشَهُ
فلم تَبقَ إلاّ نَفْسُهُ وحَلائِلُه[4]

حيث تظهر صورة الغلام الذي يتلصص محاولاً إخفاء نفسه كي لا ينفّر الحمر الوحشية، وهو يخبر الصيادين عن مواقعها وهي ترتع بين النبات الغض والمياه تجري منسابة بين الحصى. إلا أن هذه الحمر قد جرُدت من صغارها فلم يبق إلا هذه الأتن الثلاث، وفحلها الذي اخضرت شفتاه لكثرة ما تناوله من العشب الطري الأخضر. أو لا ترى معي أن هذه الصورة الأخيرة، رغم

---

(١) ـ نبغي: نطلب، نريد. يدب: يمشي راجلاً. يضائله: يُصغّره.

(٢) ـ الشياه: أراد بها الحمر الوحشية. المستأسد: الطويل. القريان: مجاري الماء إلى الرياض. حُو: خضر. المسائل: حيث يسيل الماء.

(٣) ـ ثلاث: أي ثلاث اتن. السراء: شجر يتخذ منه الرماح. المِسْحَل: الحمار الوحشي. الغمير: النبتِ الأخضر غمره نبت أحمر أطول منه. الجحافل: مفرد جحفلة: لذي الحافر كالشفة للإنسان.

(٤) ـ خرّم: قطع وهنا: أخذ. الطراد: الصيادون. حلائله: أزواجه، الواحدة حليلة.

بساطتها وسذاجتها، جميلة لما تحمله من دقة في التصوير وبراعة في الوصف إذ أن جمال اللفظ يكون على مستوى حديث الغلام الذي جاء ينقل خبر الحُمرُ والشياه كي يشجع الصيادين الذين ينتظرونه على أحر من الجمر، على القيام بعملية الصيد الميمون وهو يضائل شخصه ويصغّره حتى يكاد يخفيه حتى لا يخيف تلك البهائم من ناحية وحتى يقوم بما أوكل إليه من ناحية أخرى؟.

وانظر إليه في وصف تطويع المهر إذ يقول:

فَبِتْنـا عُـراةً عِنْـدَ رَأْسِ جَـوَادِنـا
يُـزَاوِلُنـا عَنْ نَفْسِـهِ وَنُـزَاوِلُـه[1]
ونضْـرِبُـهُ حتّى اطْـمَـأَنّ قَـذَالُـه
وَلَمْ يَـطْمَئِنّ قَلْبُـهُ وخَـصَـائِـلُه[2]
ومُـلْجِمُـنـا مـا إن ينـالَ قَـذَالَـه
ولا قَـدَمـاهُ الأرْضَ إلاّ أَنَـامِلُه[3]

ألا تلاحظ معي كيف تناول زهير وصف الذين يعملون على تطويع الحصان البكر حتى يسهل قياده على الرغم من ضخامته وارتفاعه وتمرده إذ لا يمكن أن تنال من رأسه، للجمه، إلا بعد أن تتمطى وأنت تقف على رؤوس أناملك؟ وألا ترى كذلك كيف

(١) ـ فبتنا عراة: لا يسترنا شيء. يزاولنا: يعالج مدافعتنا. نزاوله: نحاول إلجامه وركوبه.
(٢) ـ اطمأن قذاله: خفض رأس. القذال معقد عذاره في الرأس.
(٣) ـ الملجم لا ينال من قذال الجواد كناية عن ارتفاعه.

استطاع زهير أن ينفذ إلى نفس الجواد حين أحس بما يريده المطوعون في الصباح حيث استحوذ عليه الفزع فألجموه ولم يتمكنوا من إزالة مخاوفه. أما الغلام فكان أيضاً على علم بما ينتاب الجواد في هذه المعركة لأنه كذلك على دراية تامة بما يوكل إليه مما اضطره إلى معاودة الجواد حتى تمكن من تطويعه.

ومن هنا نرى أن زهيراً قادر على تصوير المعاناة الداخلية النفسية إضافة إلى كونه قادراً على تصوير الأمور الحسية وكأنما كان زهير خبيراً بتقصي حالات النفس وسبر أغوارها كما هو الحال في رسم صوره الحسية، ومرد ذلك يعود لشدة تمرسه في أمور الحياة فنفذ ببصيرته ليس فقط إلى نفس الإنسان فحسب بل وإلى نفس الحيوان أيضاً. فالغلام يعرف تماماً ما يطلب منه فهو مطمئن له ومستعد إليه، والحصان يعرف كذلك ماذا يراد من مزاولته، ولكن إصرار المطوّع على تطويع المهر كان أقوى من إصرار المهر على معاندته فانصاع إليه سهل الانقياد بعد جهد جيد:

فَلأياً بِلأيٍ ما حَمَلْنا وَليدَنا
عَلَى ظَهْرِ محبوك ظِماءٍ مَفاصِلُه[1]

فتبّع آثار الشياه وليدنا
كشؤبوب غيث يحفش الأكم وأبله[2]

---

(١) - اللأي: الجهد. الوليد: الغلام. المحبوك: الشديد الخلق. ظماء: قليل اللحم.

(٢) - الشؤبوب: الدفعة من المطر. يحفش: يجرف. الوابل: المطر.

وبعد أن صعد الغلام ظهر الجواد، انطلق به في مطاردة الشياه كأنه شؤبوب قذف به من السماء، غزير، فنفرت منه تلك الشياه مذعورة والحصى يتطاير خلفها على وجهه إلى أن تمكن الوليد من الاستفراد بالحمار من دون صواحبه وعاد به مدمى، وعلى حصانه شيء من دمه.

وعندما يتحدث زهير عن البقرة والوحشية، فإنما ينعتها كذلك بالصفات الحسية والنفسية التي تحدث عنها فيما سبق من خلال علاقة الغلام بالحصان ومن خلال علاقته بالحمر الوحشية. فهذه البقرة طلقة جميلة مستنفرة دائماً لأنها تترك وراءها وليدها الذي تحرص عليه، كل الحرص، من الليث والإنسان، حتى لا يصاب بأذى. وهي في استنفارها شاكية السلاح، بقرنين قويين، وكأنها ما خلقت إلا للحرب والكفاح ضد أعدائها الألداء. وكيف لا تكون كذلك مستعدة وهي تحتمي بقرنيها القويين يقيانها الخطر ويؤمنان وحدتها. والذي يزيدها استنفاراً أذناها المرهفتا السمع اللتان تساعدانها على الحيطة والحذر خشية أي خطر مفاجىء. أما عيناها فنافذتان تساعدانها على النظر إلى البعيد.

انظر إليه كيف يضع أمامنا هذه الصورة بكل دقة وإمعان:

كَخَنْسَاءَ سَفْعَاءِ الملاطم حُرَّةٍ

مُسَافِرَةٍ مزؤودة أمِّ فَرْقَدِ

(١) - الخنساء: القصيرة الأنف. السفعاء: السوداء في حمرة. المزؤودة: المذعورة. أم فرقد: أم ولد.

غـدت بسـلاحٍ مِثْلُهُ يتقى بـه

وَيؤْمِنُ جَـأْشَ الخائِفِ المُتَـوَحِّدِ[1]

وسـامعتـين تعـرِفُ العِتْقَ فيهـما

إلى جَـذْرِ مَدْلوكِ الكُعُوبِ مُحَدَّدِ[2]

ونـاظـرتـين تطـحـران قَـذاهمـا

كـأنَّهما مَـكْـحُـولَـتـان بإثْمِدِ[3]

طبـاهـا ضحـاء أو خـلاء فخـالفت

إليـه السبـاعُ في كنـاس ومـرقـد[4]

فزهير يعرض لنا، في هذه الأبيات صورتين: الأولى صورة البقرة الوحشية من الخارج حيث تلمح لونها وحركاتها ووسائل دفاعها. والثانية هي صورة البقرة النفسية من خلال قلقهـا على وليدها وحنينها إليه وخصـوصاً أنها تـركته وحيـداً في كنسه وقـد يتعرض له السباع، فعادت مسرعة لتراه بعد أن كانت مستجيبة لدعاء الرعي في ضحائه.

ولو تابعنا صورة هذه البقرة فماذا نرى؟ :

---

(١) ـ أراد بالسلاح : قرنيها. الجأش: الصدر.

(٢) ـ السامعتان: الأذنان. العتق: الأصل من صفات النجابة. مدلوك الكعوب: أملس. محدد: شحوذ.

(٣) ـ تطحران: ترميان. القذى: ما يعكر صفاء العين. الإثمد: الكحل.

(٤) ـ طباها: دعا للرعي. ضحاء: وجبة الأكل للحيوان. خالفت إليه: قصدت إليه. الكناس: التستر من الحر أو من البرد.

أضــاعَتْ فَلَم تُغْفَـر لهـا خَلَواتُهــا
فـلاقَتْ بَيـانـاً عِنْـدَ آخـر مَعْهَـدِ[١]

دماً عِنْـدَ شِلْوٍ تَحْجُـلُ الطيـرُ حَـوْلَـهُ
وبِضْـعِ لِحـامٍ في إهــابٍ مُقَـدَّدِ[٢]

وَتَـنْفُضُ عَـنهــا غَيْـبَ كُــل خَميـلَةٍ
وتَخْشَى رُماةَ الغَوْثِ من كل مَرْصَدِ[٣]

فَجـالَتْ عــلى وَحْشِيِّهــا وكــأنها
مُـسَــرْبَلَةٌ في رازِقِـيٍّ مُـعَـضَّــدِ[٤]

ولم تَـــدْرِ وَشْـــكَ البَـيـنِ حَتَّى رأتْهُمُ
وَقَـدْ قَعَـدوا أَنْفـاقَهـا كـلُّ مَقْعَـدِ[٥]

---

(١) ـ أضاعت: تركت ولدها وغفلت عنه. تغفر: تستر، تسامح. لاقت بياناً: وجدت ما بقي من ولدها. عند آخر معهد: عند آخر موضع تركته فيه.

(٢) ـ الشلو: العضو، القطعة. تحجل: تمشي مشى المقيد. الإهاب: الجلد. المقدد: المخرق، المشقق.

(٣) ـ تنفض عنها: تطرد عنها. الغيب: كل ما استتر عنك. الخميلة: رملة ذات شجر وهي البستان الكثيف الشجر. الغوث: قبيلة من طيء اشتهر أهلها بالرماية.

(٤) ـ وحشيها الجانب الذي لا يركب منها وهو الأيمن. جالت: مشت ذهاباً وإياباً مسربلة: لابسة عليها ثوبا. الرازقي: الثوب الأبيض المعضد: المخطط.

(٥) ـ وَشْكُ البين: سرعة وقوعه وفراقها لولدها. أنفاقها: ممراتها وطرقها. رأتهم: رأت الرماة وقد قعدوا يترصدونها.

وَثَــارُوا بِهَا مِنْ جــانِبَيْهــا كِلَيْهِــمَا
وَجَالَتْ، وإنْ يُجْشِمْنَها الشدُّ تَجْهَدِ[1]
تــبــذ الأُلى يَــأْتِينَهــا مِن وَرَائِـهـا
وإن يَتَقَدَّمْهَا الســوابق تَصْـطَدِ[2]
فــأنْقَــذَهَــا مِنْ غَمْـرَةِ المـوت أنها
رأتْ أنها إنْ تَنْظُرِ النبلَ تُقْصَدِ[3]
نجاء مُجِدٌّ ليس فــيـــه وَتِــيــرَةٌ
وَتَـذْبِيبُهـا عنهــا بـأسحم مِــذْوَدِ[4]
وَجَــدَّتْ فــأَلْقَتْ بَيْنَهُنَّ وبَيْنَهــا
غُباراً كما فَـارَتْ دَوَاخِنُ غرقـدِ[5]
بِمُلْتَئِمــاتٍ كــالخَــذاريفِ قُــوبِلَتْ
إلى جَوْشَنٍ خاظي الطَّريقةِ مُسْنَدِ[6]

---

(١) يجشمنها: يكلفنها. تجهد: تسرع.

(٢) تبذ: تسبق وتغلب. الألى يأتينها: الكلاب. تصطد: تصد الكلاب بقرنيها.

(٣) ـ تنظر النبل: أي تنظر أصحاب النبل وهم رماته.

(٤) ـ النجاء: السرعة. الوتيرة: التلبث والفترة. التذبيب: من ذب أي دافع وهو الدفاع.

(٥) ـ الدواخن: واحدتها دخان. الغرقد: الشجر.

(٦) ـ الملتئمات: القوائم التي تشبه بعضها بعضاً. الخذاريف: مفردها. خذروف: لعبة يلعب بها الصبية. شبه القوائم بها لخفتها وسرعة دورانها على نفسها. قوبل: يقابل بعضه بعضاً. الجوشن: الصدر الخاظي: الكثير اللحم، المتراكب. الطريقة: اللحمة في أعلى الصدر. المسند: مايسند إلى الظهر.

ولقد كانت فجيعة تلك البقرة عظيمة عندما رأت أنه لم يبق من ولدها غير أشلاء من اللحم والجلد المقدد والدم المهرق، والطيور تتحجل مجتمعة على هذه الأشلاء. فاغتمّت تلك البقرة من هذا المنظر وفقدت كل أمل في الحياة فهامت على وجهها مسرعة مذعورة مرعوبة وهي تخشى رماة عشيرة الغوث الذين كانوا يتربصون بها وهم يوجهون إليها نبالهم وكلابهم، وهي تتراءى لهم بثوبها الأبيض المخطط. ولم تكن تدري أن الموت يترصدها حتى رأت بأم العين أن وقوعـه أوشك أن يحصل لولا أن رأت السهـام تتجه نحـوها فتجنبتها في الوقت المناسب، إضافة إلى كلاب الصيد التي حاولت أن تسد عليها المنافذ فقاومتها بقرونها الفولاذية إلى أن أفلتت من الموت، الذي كان محققاً، بما تملكه من قوة جسدية خارقة من ناحية وبما أثارته خلفها من غبار كأنه غابة من الدخان من ناحية ثانية، وتسعفها في ذلك كله خفة قوائمهـا التي كانت تـظهر لسـرعتها وخفتهـا كـأنها خـذاريف الأطفـال في شـدة دورانها واتسـاقهـا واندفاعها.

ألا ترى أن في هذا الوصف نوعين من الصور؛ **النوع الأول:** صور حسية مادية يخاطب فيها حواسنا إذ جعل مثلاً قوائم البقرة متناسقات متقابلات يقابل بعضها بعضاً، وهي قد أضفت على هذه البقرة ستاراً من الخفة والقوة والرشاقة، حتى انك تستطيع أن ترى أن هذه البقرة نسج وحده في جمال الصورة وروعة الحركة في كمال خلقها وتناميها، فتتأكد من ذلك، أن زهيراً، في وصفه،

رزين هادىء متزن لا يصور ولا يتقصّى فيما يُصَوِّرُ إلا لأن الضرورة الفنية تفرض عليه ذلك. والنوع الثاني صورٌ نفسية تُظهر بشكل أو بآخر مقدار عاطفة هذه البقرة تجاه ولدها ومقدار خوفها من المتربصين بها، مع كلابهم، وهم يوجهون نحوها سهام الموت التي كانت تلك البقرة تتلافاها بنظرها الثاقب وكأنها تخطط وتحسن التخطيط إذْ فازت بالنجاة بما أحدثته خلفها من الغبار الذي وضع بينها وبين أعدائها ستاراً من الحماية والاطمئنان.

حقاً لقد استنفد زهير، فيما عرضنا مِن المقاطع الوصفية عنده، كل براعته حيث وشاها بالتشبيهات الجميلة وقد ملأها بذلك حركة ورشاقة، وأغناها دقة حتى بدت جلية واضحة تخاطب منا العقل والنفس معاً ليشهدا بحلاوة الصورة وسمو المعنى.

أما في وصف الخمر ومجالسه، فانظر معي إلى هذه الأبيات:

وقد أغْدو على ثُبَةٍ كِرَامٍ
نَشَاوَى واجِدين لما نشاء[1]

لهُمْ راحٌ وَراووقٌ ومِسْكٌ
تُعَلُّ به جُلُودُهُمُ وماءُ[2]

---

(١) ـ الثبة: الجماعة من الناس. نشاوى: سكارى. واجدين لما نشاء: قادرين على تناول ما نشاء من الطعام والشراب وممارسة الطرب والغناء.

(٢) ـ الراح: الخمر. الراووق: المصفى أو المصفاة. تعل: تطيب به.

يَجُــرُّونَ الــبُــرودَ وَقَــدْ تَمَــشَّــتْ
حُمَيَّــا الكَــأسِ فيهــم والغِـنــاء[1]
تَمَشَّى بــين قــتــل قــد أصيــبــت
نُـفُــوسُـهُــمُ ولم تُـهْــرَقْ دمــاء[2]

فالشاعر هنا يصف سيره صباحاً مع مجموعة من الناس وقد لعبت الخمر في رؤوسهم فأخذت بهم النشوة وهم قادرون على إيجاد ما يريدون من أكل وشرب وطرب. ولهذا قد اصطحبوا معهم الخمر ومصفاتها لتنقيتها، فهي طيبة الرائحة ممسكة حتى تطيب بها نفوسهم بعد أن يمازجوها بالماء لقتل حدتها. وبعد أن تفعل الخمر في رؤوسهم تراهم يجرون أذيالهم يتبخترون تيها ويغنون طرباً من فرط النشوة، حتى ترى نفسك وأنت بينهم كأنك بين قتلى ولكن دون أن تُهرَقَ الدماء وتُزهَقَ الأرواح بحميّا الخمر.

ألا ترى أن زهيراً في هذه الأبيات، كما هو في غيرها، قد تقصى الصورة بجزئياتها، الدقيقة، فمن خروجهم إلى وقوعهم قتلى بحميا الخمر، وكأنه قد جعل أعضاء هذا المجلس يترنحون تحت ضغط الخمر أمامنا وكأنهم موتى. فهذه الصورة سهلة المأتى قريبة المنال، لا تتطلب منا إعمال فكر أو كد ذهن الأمر الذي جعل

---

(١) ـ البرود مفردها برد: الثوب الموشى. حميا الكأس: سورة الخمر وصدمتها بالرأس.

(٢) ـ تمشي: تسير والضمير للخمر. القتلى هنا كناية عن السكارى.

الدكتور طه حسين يعترف في أكثر من موقف له أن زهيراً قد طوع الشعر كما طوع غلامُه الجواد الشموس فسهل قياده عليه وأصبح زهير بالشعر علما.

المدح في شعر زهير بن أبي سلمى

إن ما يؤكده الرواة، إضافة إلى ما يؤكده ديوان زهير نفسه، هو أن زهيراً قد انقطع إلى مدح الغطفانيين وخصوصاً مدح هرم بن سنان بن حارثة المُرّي والحارث بن عوف وحصن بن حُذَيْفَة بن بدر.

ففي قصيدته الدالية التي مطلعها:

غشيت ديــاراً بــالبقيــع فثهـمـد
دوارس قـد أقـوين من أم معبــد[1]

أَرَبَّتْ بهــا الأَرْوَاحُ كــلَّ عـشيــة
فَــلَمْ يَـبْــقَ إلاّ آلُ خَيْمٍ منضدِ[2]

وغــيرُ ثلاثٍ كــالحَمَامِ خَــوَالِــدٍ
وَهَــابٍ مُحِيــلٍ هــامــدٍ متلبــد[3]

---

(١) ـ البقيع وثهمد: موضعان. دوارس ممحوة. أقوين: أقفرن.

(٢) ـ أربت: لازمت. الأرواح مفردها ريح. الآل: مفردها آلة: خشبة شعبة الخيم: مفردها: خيمة. المنضد: المرتب.

(٣) ـ يريد الأثافي: حجارة الموقد. الخوالد: الباقية. الهابي: الرماد. الهامد: المتغير. المتلبد: اللاصق.

فلما رَأيتُ أنها لا تُجيبُني
نَهَضْتُ إلى وجنَاء كالفَحْلِ جَلْعَدِ[1]

نرى أن زهيراً، في هذه القصيدة ، كما في غيرها من مطولاته، يبدأ، وكعادة الشعراء الجاهليين، بوصف ديار الأحبة التي أقفرت منهن ورفضت أن تجيبه على أسئلته عنهن الأمر الذي جعله يجد نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى ناقته القوية السريعة التي لا يلبث أن يشبهها بالبقرة الوحشية حيث يستطرد في وصفها، وذلك مراعاة للنظير، ناعتاً إياها بكل صفات السرعة والحيوية والحذر. . . وكيف لا تحذر هذه البقرة وقد تركت وليدها عرضة للسباع. . . وكيف لا تعدو والصيادون يتربصون بها وقد وجهوا نحوها كلابهم وسهامهم. . . ولكنها نجت منهم بفضل ما أثارته في وجوههم من غبار حتى غدت وكأنها في غابة ظليلة. . . وبسرعة تفوق التصور وبعد ثلاثة أيام من المسير وجد زهير نفسه وجهاً لوجه أمام هرِم الذي لا توصد أبوابه أبداً في وجه قاصديه، سواء أجاؤوه في ساعات سعدهم أم في ساعات نحسهم وبؤسهم:

إلى هـرِمٍ تَهْجيرُهَا وَوَسِيجُهَا
تَرُوحُ من اللَّيْلِ التَّمامِ وتَغْتَدي[2]

---

(١) ـ الضمير في تجيبني يعود إلى الدار. الوجناء: الناقة الضخمة. الجلعد: الشديدة.

(٢) ـ تهجيرها: سيرها عند اشتداد الحر في الهاجرة. وسيجها: سيرها السريع.

إلى هَـرَمٍ سَـارَتْ ثـلاثـاً من اللّوى

فَنِعْـمَ مَسِـيرُ الـواثِـقِ المُتَعَمِّـدِ[1]

سِـوَاءٌ عَـلَيْـهِ أيَّ حـينٍ أتَيْـتَـهُ

أساعـة نحسٍ تتّقى أمْ بـأسْعُـدِ

وهرم مع هـذا قاهـر الكماة ومنقـذ المقيدين الأسـرى، وهو شجاع، كالأسد الذي يقف أمام عرينه ليحمي أنثاه وشبليه، ومتأهب دائماً ولا يفر إذا دعي لنجدة. وهو كذلك فارس حرب مجرب يلوذ به الفرسان لأنه قادر على الدفاع عن القوم ليس فقط بحسامه بل وبلسانه أيضاً. فهو بهذا شاعر مفوّه وخطيب مصقع، إضافة إلى كونه فارساً صنديداً مبرزاً. وهو كذلك حَمّال هموم القوم وقاهر الأعداء ومأوى كل طريد:

ألَيْسَ بضَـرّابِ الـكُمَـاةِ بِسَيْفِـهِ

وفـكّـاك أغْـلالِ الأسـير المقيَّـدِ

كَـلَيْثٍ أبي شِبْلَيْنِ يحمي عـرينـه

إذا هُـوَ لاقـى نجْـدَةً لم يُعَـرِّد[2]

ومِـدْره حـرب حَمْيُهَـا يُتّقـى بِـهِ

شَـديدُ الـرِّجام بـاللِّسانِ وبـاليَـدِ[3]

---

(١) ـ اللوى: منقطع الرمل وهو اسم موضع هنا. الواثق: المتأكد. المتعمِّد: القاصد.

(٢) ـ لم يعرِّد: لم يفر.

(٣) ـ المدره: فارس القوم الذي يدافع عنهم. حميُها: شدتها. الرِّجام: المراماة بالخصومة.

وثِقْلٌ على الأعْـداءِ لا يضعونـه

وحمّـالُ أثقالٍ ومـأوى المطرَّدِ[1]

أما في الكرم فهرم كالغمام الغر يعمّ خيرُه جميع الكائنات بما في ذلك إعالة اليتامى فهو بذلك محمود الخلق وخالد على الزمن. كما أنه سباق إلى الأمور العظيمة التي قد تعرض لقيس عيلان قبيلته. وأما في الغنائم فهرم لا يكثرها بغية الإضرار بذوي القربى إذ أنه ليس ببخيل وهو بذلك تقي نقي لا غبار عليه حيث لا يجعل نصيبه من الغنيمة غير رُبعها الذي يستحقه دون أن ينزل الظلم بأحد، إذ لا ينـال ربع الغنيمـة سوى فـارس القوم، وهـذا حق للفارس ومتعارف عليه. لذلك فهو عندما اعترضه عارض بجيش عـرم استل سيفه وقهر ذلك العارض الجبار وغنم ما غنم ولم يأخذ من ذلك إلا ما يستحقه فهنيئاً له:

أَلَـيْسَ بِفَـيَّـاضٍ يَـدَاهُ غَـمَـامَـةٌ

ثِمالِ اليتـامى في السنـين مُحَمَّـدِ[2]

إذا ابْتَـدَرَتْ قَيْسَ بنَ عَيْـلاَنَ غَـايَةً

من المَجْـدِ من يَسْبِق إِلَيْهَـا يُسَـوَّدِ[3]

---

(١) ـ ثقل على الأعداء قوي عليهم. المطرَّد: المطرود من العشيرة.

(٢) ـ الفياض: الكثير العطاء. ثمال اليتامى: معيلهم.

(٣) ـ ابتدرت: تسابقت: فاجأت. يُسَوَّد: يصبح سيداً على الناس.

سَبَقْتَ إِلَيْهـا كـلُّ طَلْقٍ مُبَـرِّزٍ
سَبُوقٍ إلى الغـايـاتِ غـيْرِ مُجَلَّدِ[1]
كَفِعْـلِ جَـوَادٍ يَسْبُق الخَيْـلَ عَفْـوُهُ
فَيُسْـرِعُ وإن يَجْهَدْ ويجْهَـدْنَ يَبْعُـدِ[2]
تـقيٌّ نـقيٌّ لم يُـكَـثِّرْ غـنـيمـةً
بـنهكـةِ ذي قُـرْبَى ولا بـحَـقَـلَّدِ[3]
سِـوى رُبُـعٍ لم يَـأْتِ فيـه مَخَـافَةً
وَلَا رَهَقَـاً مِنْ عَـائِـذٍ مُـتَهَـوِّدِ[4]
يَـطيبُ لَـهُ أَوْ افتـراص بِـسَيْـفِـهِ
على دَهَشٍ في عَارِضٍ مُتَوَقِّدِ[5]

ألست ترى أن زهيراً في هذه الأبيات ينعت ممدوحه بالعديد من النعوت الحسية والمعنوية وكأن هرماً تتجسد فيه كل معاني البطولة والشجـاعة والبـأس والكرم والنجـدة وحمايـة الضعيف وإغاثـة الملهوف وإيواء الطريد، وهرم مع كل ذلك غير بخيل وغير طماع وغير جبان لا يمكن أن يفر من مواجهة الأعداء، ويحمل عن أبناء عشيرته كل ما يصيبهم من أثقال الحياة وتبعات الأعداء.

---

(١) ـ الطلق: ظاهر الفضل، المعطاء. المبرز: السابق. مجلد: مضروب بالسياط.

(٢) ـ عفوه: ما جاء منه دون كد وإجهاد.

(٣) ـ النهكة: النقص والإضرار. الحقلد: البخيل.

(٤) ـ الرهق: الظلم. العائذ: الملتجيء. المتهود: المطمئن، الساكن إليه.

(٥) ـ الإفتراص: الضرب والقطع. الدهش: العجلة. العـارض: هنا أراد بـه الجيش تشبيهاً بالسحابة المعترضة.

ولنقرأ قصيدة زهير اللامية التي يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر المري، التي مطلعها:

صَحَا القَلْبُ عَنْ لَيْلى وأقْصرَ بَاطِلُه
وَعُـرِّيَ أفْـراسُ الصِّبـا وَرَواحِلُه

إلى أن نصل إلى هذه الأبيات:

وأبْيَضَ فيـاضٍ يـداه غمـامـةٌ
عَـلى مُعْتَفِيـهِ مَـا تُغِبُّ فَـوَاضِلُه[١]

بَـكَـرْتُ عَـلَيْـهِ غُـدْوَةً فَـرَأيْتُـهُ
قُعُوداً لَدَيْهِ بالصَّـرِيمِ عَـوَاذِلُه[٢]

يُـفَـدِّيـنَـهُ طَوْراً وَطَوْراً يَـلُمْـنَـهُ
وَأعْيـا فـما يَـدْرِينَ أيْنَ مَخَـاتِلُه[٣]

فـأقْـصَـرْنَ مِـنْـهُ عَنْ كريم مُرَزَّإِ
عَزُوم عَلَى الأمْرِ الذي هُـو فَاعِلُه[٤]

أخي ثِقَـةٍ لا تُتْلِفُ الخَمْـرُ مـالَـهُ
ولكنـه قـد يُهْلِكُ المـال نـائلُه[٥]

---

(١) ـ الأبيض: كناية عن النقاء. الفياض الكثير العطاء. المعتفون: طالبو المعروف. تغب: تنقطع.

(٢) ـ الصريم: مكان رملي. العواذل: اللائمون.

(٣) ـ أعيى: أعجز. المخاتل: أماكن الخداع من الرجل. ختل: خدع.

(٤) ـ أقصرن: كففن. المرزأ: المصاب بمصيبة أو رزيئة.

(٥) ـ أخي ثقة: يوثق بما عنده من الخير. النائل: العطاء.

تـراه إذا مـا جئـتـه متـهـللاً

كـأنك تعـطيه الـذي أنت سـائله(١)

بعد القراءة الممعنة لهذه الأبيات، نرى أن حصن بن حـذيفـة نقـيّ أبيض لا تنقطع عطاياه عن طالبيها لأنه كـريم كالغمـام، مهلك للمال ومبذر فيه، فهو عندما وصل إليه الشاعر وجده قاعداً وحوله لائموه وقد أعياهم أمر هذا التبذير والإسراف في المال، لأن الممدوح إن عزم على تنفيذ أمر جليل عظيم فلا بد من أن هذا الأمر حـاصل لا محـالة. فلذلـك نرى أن أولئـك اللائمـات يفـدينه بأنفسهن... وعندما لا يجدن من ذلك الإسراف بداً فيكففن عن اللوم والعذل لأنه لا ينفق المال إلا في سبيل الأمور العظيمة التي من شأنها أن ترفع من قيمة الإنسان وتعلي من مقامه. فلهذا كله ترى وجهه يطفح بشراً و يتهلل إشراقاً وخصوصاً إذا ما جئته لتطلب حاجة منه لأنه يعتبر أن طلب الأمر من السيد الكريم إعطاؤه إياه، فلذلك أصبح حصن موضع ثقـة الناس ومحط آمـالهم. كما أنـه فصيح قوي الحجة بالـغ البرهـان، سليم الخُلُق شديـد الصفح متفضل على الضعيف المغلوب بما تتصف به نفسه من الحلم:

دَفَعْتَ بِمَعْـرُوفٍ مِنَ القَـوْلِ صـائِبٍ

إذا مَـا أَضَـلَّ النـاطِقـينَ مَفَاصِلُه(٢)

---

(١) ـ المتهلل: طلق الوجه مشرقه.

(٢) ـ أراد بهذا البيت: أنه إذا لم يهتد الناطقون لمفاصل الكلام فالممدوح مهتـد إليها.

وَذي خَطَلٍ في القَوْلِ يَحْسَبُ أنَّه
مُصيبٌ، فما يُلْمِمْ به فَهو قائِلُه[1]
عَبَأْت لَهُ حِلْماً وأكْرَمْت غَيْرَه
وَأعْرَضتَ عنهُ وَهوَ بادٍ مقاتِلُه[2]

كيف لا يكون حصن كذلك وهو ينتمي إلى والده حذيفة وجده بدر وكلاهما لا يمكن أن يضارعهما أحد من الناس مهما سمت مكانته وعلت.

وإضافة إلى ذلك فحصن بطل فارس يأبى الضيم، لا ينام على مكروه وخصوصاً عندما انتصر على النعمان الغساني الذي يصرص على أنيابه من الغيظ وهو يستل سيوفه ويحتمي وراءها متدرعاً بها وهي كالحصون:

حُذَيْفَةُ ينميه وبدر كِلاهُما
إلى باذِخٍ يعلو على من يطاوله[3]
وَمَنْ مثلُ حِصْنٍ في الحُروب ومِثْلُهُ
لإنكارِ ضَيْمٍ أوْ لأمْرٍ يُحَاوِلُه
أبى الضَّيْمَ والنعمانُ يَحْرُقُ نابَه
عليه فَأَفْضَى والسُّيوفُ معَاقلُه[4]

---

(١) ـ الخطل: الخطأ في القول. ما يلمم: ما يحيط.
(٢) ـ عبات له حلماً: أراد حلمت عليه وصفحت عنه وقد بدت لك معايبه.
(٣) ـ حذيفة: أبو الممدوح. بدر: جده. الباذخ: العالي. وأراد به الشرف.
(٤) ـ يحرق نابه: يصرفه من الغيظ. أفضى: صار. معاقله: حصونه. أبى الضيم: رفض الذل.

فلو حاولت معي أن تجري مقارنة بين ممدوح زهير في هذه القصيدة اللامية وهو حصن بن حذيفة ، وبين ممدوحه هرم بن سنان في قصيدته الدالية لرأيت أن زهيراً صناع ماهر حاذق لا يحوجك إلا أن تقرأ وتستزيد لأنك تجد سهولة لا تعنت فيها، سيما، وأنت تستعرض خصال الكريم المتوارثة. فمن صفات هرم مثلاً أنه تقي نقي ناصع الإشراق كما في قوله:

تقي نقي لم يكثر غنيمة
بنهكة ذي قربى ولا بحقلد

وحصن كذلك أبيض فياض كريم كالمطر:

وأبيض فياض ، يداه غمامةٌ
على مُعْتفيه ما تُغِبُّ فَوَاضِلُه

فكما أن هرماً كريم وكل همه من الغنائم أن لا ينقص على ذوي القربى حقهم لأنه جواد وليس ببخيل وهو كذلك يقول زهير:

أليس بفياض يداه غمامةٌ
ثِمال اليتامى في السنين محمَّدِ

وحصن مثل هرم جواد كريم يداه غمامة تدر على الطالبين. فوجه الشبه هنا قائم بين الممدوحين للتأكيد على أن العربي كان محباً لهذه الخصال التي خلدها زهير في شعره فأحبه الناس وأكرموه، دراسة وقراءة وعناية، لأن شعره يحمل في طياته احتراماً خالصاً للمثل وسعياً دائباً للحياة السامية.

ولو تتبعنا شعر زهير لرأيناه يثبت في ممدوحه كل ما فيه من الصفات الطيبة والخصال الحميدة، بمنطق صادق لا تشوبه شائبة وبأسلوب سهل المنال ليس فيه التواء ولا تعنت حتى لكأنك معه أمام نبع سيال تنثال منه المعاني انثيالاً لا صعوبة فيها ولا تعقيد، اللهم ما كان قد بعدت الهوة الزمنية بيننا وبينه فنجد أنفسنا أحياناً أننا بحاجة إلى استعمال المعاجم اللغوية؛ وهذا الأمر ليس بمعيب لأن الإنسان العربي مهما بلغت ثقافته اللغوية وإحاطته بها فإنه سيجد لزاماً عليه استعمال المعجم إذ لا كمال إلا لله.

أما زهير في قصيدتيه السابقتين فقد عمد إلى إبراز الصفات الفردية في مدحه لبطليه هرم بن سنان وحصن بن حذيفة اللذين كادت أن تكون أوصافهما وشمائلهما واحدة في اللفظ وفي الصورة معاً. وأما زهير في قصيدته التي مطلعها:

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو

وأقفر عن سلمى التعانيقُ فالثقل

فإنه يعمد فيها إلى أن يمدح جماعة غطفان مدحاً جماعياً إذ يقول:

لَأَرْتَحِلَنْ بِالفَجْرِ ثُمَّ لَأَدْأَبَنْ

إلى اللَّيْلِ إلَّا أَنْ يُعَرِّجَنِي طِفْلُ[1]

---

(١) ـ أداب: أجدّ. يعرجني: يحبسني. طفل: أراد أن ناقته وضعت طفلاً منعه عن السير.

إلى مَعْشَرٍ لم يُورثِ اللُّؤمَ جَدُّهُم
أَصَاغِرَهُم، وكُلُّ فَحْلٍ له نَجْلُ(١)
تَرَبَّصْ فإن تُقْوِ المَرُوراتُ مِنْهُمُ
وداراتُها لا تُقْوِ منهم إذاً نَجْلُ(٢)
فإن تقويا منهم فإن مُحَجَّراً
وجِزْعَ الحِسا منهم إذا قل ما يخلو(٣)
إذا فزعوا طاروا إلى مُسْتَغيثِهِم
طوالَ الرماح لا ضِعافٌ ولا عُزْلُ(٤)
وإن يُقْتَلُوا فَيُشْتَفى بِدِمائِهِم
وكانُوا قديماً من مِنَاياهُمُ القَتْلُ(٥)

ألا ترى مصداقية ما نقول، من خلال استخدام زهير لضمير الجماعة في أن جماعة غطفان قد ورثوا المجد عن جدهم الكبير غطفان؟ وهم بالتالي أنجاله جميعاً. والشاعر في هذه القصيدة يحدد لنا العلاقة التي كانت قائمة بينه وبينهم ذاكراً أهم خصالهم إذ أنهم يَهبّون لنجدة المستغيث وهم طوال الرماح، كناية على أنهم طوال،

---

(١) ـ النجل: النسل، الولد.
(٢) ـ تربص: تلبث لا تسرع. تقوي: تقفر. المرورات: أرض بعينها. نخل: اسم أرض.
(٣) ـ المحجر وجرع الحسا: مكانان. الجزع: منعطف الوادي الحسْا: ماء رفع منه الرمل.
(٤) ـ فزعوا: أغاثوا مستصرخاً، انجدو. العزل: لا سلاح معهم.
(٥) ـ أي أنهم أشراف وقاتلهم يعتد لذلك بقتلهم وينال منهم ثاره.

فباعهم في الحرب طويل لتأكيد النصر على الأعداء. وأما إذا قُتِلوا فقاتلوهم يفتخرون بهذا القتل لهم تشفياً منهم وإدراكاً لثأرهم عندهم. وهذا من باب الاعتراف بقوة الخصم لتأكيد قوة الممدوح الذي ما كان قتله وموته في ساحات الوغى إلا أمنية من أمنياته. إذ كيف يموتون على غير ذلك وهم ليسوا بجبناء. ثم يستمر زهير في مدح غطفان في أنهم نجديون وفتيان صدق وموضع الرضى والعدل إذا ما تنازعت الأقوام، كونهم ثقات عدولاً. كيف لا وهم فخر الآباء والأجداد لأنهم من معد، ولهم الفضل والعطاء في أقوامهم وخصوصاً هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذان تحملا ديات القتلى في عبس وذبيان وأثبتا دعائم السلم بين المتحاربين بعد أن استمرت الحرب عقوداً.

أولسنا نرى أن زهيراً في هذه القطعة واحد من أولئك الذين يدعون إلى السلم بين الناس إذ لا شيء عنده أجمل من أن يعيش الإنسان آمناً في أرضه حيث يعم الخير والاستقرار وينصرف التفكير البشري، عندها، نحو الإبداع في كل ما يعطي. وزهير في خلال ذلك إذ يصف الحياة المجدبة وهي في قلق مستمر تدفع بالناس إلى الحاجة والعوز إذا ما استمرت الحروب على الأرض الواحدة. فكيف تحلو الحياة وتسمو إذا أجدبت النفوس كما تجدب أرض الصحرا؟ فمن يجد الناس عندها؟ وهل يكون غير ممدوحي زهير وهم عنده غاية من يقصده المعتفون والطالبون والمستغيثون والمستجدون واليتامى؟

ولننظر إلى زهير في قصيدته الرائية في مدح هرم فماذا نرى؟ :

دَعْ ذا وَعَدِّ القَوْلَ في هَرَمٍ
خَيْرِ البُداةِ وسيِّدِ الحَضَرِ[1]
وَلِنِعْمَ حَشْوُ الدرعِ أَنْتَ إذا
دُعِيَتْ نَزالِ وَلُجَّ في الذُّعْرِ[2]
حَدِبٌ على المَوْلى الضريك إذا
نابَتْ عَلَيْه نَوائِبُ الدَّهْرِ[3]
ويَقِيكَ ما وقَّى الأَكارِمَ مِنْ
حُوبٍ تُسَبُّ بِهِ وَمِن غَدْرِ[4]
فَلأَنْتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبعضُ
القَوْمِ يَخْلُقُ ثم لا تفري[5]
والسِّتْرُ دونَ الفاحِشاتِ وَما
يَلْقاكَ دُونَ الخَيْرِ من سِتْرِ[6]
أُثْنِيَ عَلَيْكَ بما عَلِمْتُ وما
سَلَّفْتَ في النَّجداتِ والذِّكْرِ[7]

---

(١) ـ دع ما أنت فيه من وصف الديار. عد القول: أصرف. البداة: البدو.

(٢) ـ دعيت نزال: تداعى القوم بالقتال. لج في الذعر: تتابع في الفزع.

(٣) ـ الحدب: المتعطف، المشفق. الضريك: من يضر بهم أو يفقر.

(٤) ـ الحوب: الإثم.

(٥) ـ تفري: تقطع. ما خلقت: ما قدرت.

(٦) ـ يعني: أنه لا ستر بينه وبين الفاحشات.

(٧) ـ اثني عليك: أمدحك بما علمت منك.

نرى أن هرِماً رجل شجاع يخوض خضم المعارك، كريم إذا ما أحس أن الناس بمسغبة أو جوع، وهو مع هذا ليس بغدار ولا ينزلق في مهاوي الرذيلة والإثم، وهو صادق العزم ولا يرده عن فعل الخير راد ولا ستر وإنما لا تكون الستائر إلا لتحجز بينه وبين الفواحش. . . فهرم في شعر زهير مثال الرجل الذي تتقد عزيمته بحب الخير ويعتمر قلبه على إغاثة الملهوف وإنجاد الضعفاء. فنراه يقول في قصيدته القافية:

قَـدْ جَـعَـلَ الْمُعْـتَـفُـونَ في هَـرِمٍ
والسَّـائلون إلى أبْـوابِـه طُـرُقـاً[1]

إنْ تَلْقَ يَـوْمـاً عَـلَى عِـلاَّتِـهِ هـرِمـاً
تلْقَ السَّمَـاحَةَ مِنْـهُ والنَّدى خُلقـا[2]

لَيْثٌ بِـعِـثَّرَ يَصْـطَادُ الـرِّجـالَ إذا
ما كذَّب اللَّيْثُ عن أقرانِهِ صَـدَقَا[3]

يَـطْعَنُهُمُ مـا ارتَمَـوْا حَتّى إذا اطَّعَنُـوا
ضَارَبَ حَتَّى إذا مَا ضَارَبُوا اعتَنَقا[4]

هـذا ولَيْسَ كمَن يَعْيَـا بُـخطَـتِـه
وَسْطَ النَّـدِيِّ إذا ما نـاطِقٌ نَـطَقَـا[5]

---

(١) ـ المعتفون: الطالبون.
(٢) ـ علاته: على ما هو عليه.
(٣) ـ الليث: الأسد. عثر: اسم مكان معين.
(٤) ـ يطعن: يضرب بالسيف. ارتموا: تراشقوا بالنبل. اعتنق: التزم.
(٥) ـ الندي: مجلس القوم.

لَـوْ نَـالَ حيٌّ مِنَ الـدُّنْيا بِمَنْـزِلَـةٍ
وَسْط السَّمـاءِ لَنَـالَتْ كَفُّـهُ الأُفُقَـا

فهرمٌ هنا فياض الكرم الأمر الذي جعل المبتغين والسائلين يسعون إليه من كل حدب وصوب وقد سلكوا في سبيل ذلك كل الطرق، فاجزل لهم العطاء حتى في أوقات ضيقه. وهو إلى جانب ذلك سمح المخالقة ورُبي على الكرم . وهو شجاع باسل صادق العزم حتى انه لِتَفَوُّقِهِ وجرأته يؤكد النصر على عدوه إذا ما تلكأ الأسد عن اقتناص فريسته، وفي عملية الانتصار تلك يستعمل السلاح المناسب حتى يحقق النصر. أما إذا دعا ناطق للسلم فهو أول الناطقين بها والساعين إليها والمحققين لها، ولا يمكن أن يستعصي عليه أمر مهما طال وعلا إلا وينال منه.

وتؤكد هذه المختارات، أن زهيراً كان على دراية تامة وإحاطة شاملة بمعجم لغة الضاد مما ساعده على أن يكون قادراً على أن يصيغ شعره بتراكيب بسيطة بعيدة عن التعقيد والغلو معتمداً في ذلك على ذوقه الفني وإحساسه المرهف بحقيقة الصور والمعاني ومدلولات الكلام الدقيقة حتى استطاع أن يقول في الرجل كل ما هو فيه؛ ومن هنا تميز شعره بالصدق وهو «يمثل شخصية البدوي الحقيقي الذي يحيط كلامه بالصدق والبساطة، وإذا أحس أن صفة من الصفات أو معنى من المعاني بأنه يكاد أن يخرج عن حدِّه أحاطه بما يجعل قوله قولاً مقبولاً فيقدم لفظة «لو» ونحوها حتى لا يتجاوز القصد، كما نرى في قوله يصف هرماً وأمجاده:

لـو نـالَ حيٌّ من الـدنيا بمكـرمـةٍ .
أُفُقَ السَّمـاء لَنالَتْ كَفُّـه الأفقـا

وقوله:

لــو كــنْـتَ مــن شيْءٍ سِــوَى بَشَرٍ
كُنْتَ المنـوَّرَ لـيـلةَ البَـدْر

فهو لا يطلق القول إطلاقاً . . . بل يجعله في حيـز «لو» حتى يخرج من باب المبالغة الذي أوشك على الدخول فيه» ولم يقل في الرجل إلا ما هو فيه فتميَّزت صوره بالصدق والبساطة.

الرثاء في شعر زهير بن أبي سلمى

الرثاء، كما هو معروف، هو أن ينسب الشاعر إلى الميت الشمائل الطيبة والخصال الحميدة التي من شأنها أن ترفع من قيمة المرثي أمام الأحياء. فالرثاء بهذا المعنى ما هو إلا مدح للراحل يُنْعَتُ به بعد موته.

ولو تتبعنا شعر زهير في أمر هذا النوع من الشعر فلم نرَ أنه ترك قصائد بعينها تتفرد بالرثاء وإنما لا نرى إلا مقطعين قصيرين؛ الأول في رثاء، والد هرِم، سنان بنْ أبي حارثة المري. والثاني في رثاء ولده سالم. وقصة رثائه في المقطع الأول تتلخص في أن سنان، أبا هرِم، «خرج في الليل فأَبْعَدَ إلى أن ضل عن سبيله فهام طول ليلته حتى سقط فمات، فتبع قومه أثره فوجدوه ميتاً فرثاه زهير بقوله»:

إن الـرَّزيـة لا رَزِيَّـةَ مِـثْـلُهـا

ما تبتغي غَطْفَانُ يَوْمَ أَضَلَّتِ[1]

---

(١) ـ الرزية: المصيبة. أضلت: أي ذهب شيء عنها بعد أن كان في يدها.

إن الـــركـــاب لـتـبـتـغـــي ذا مِـــرَّةٍ

بِجُنُـوب نَخْلَ إذ الشُّهـورُ أَحَلَّتِ[1]

يَنْعَـوْنَ خَـيْرَ النـاس عِنْدَ شــديـدةٍ

عَــظُمَتْ مُصِيبَتُــهُ هنـاك وجلَّتِ

ومُــدَفَّــعٍ ذَاقَ الهَــوَانَ مُــلَعَّــنٍ

رَاخَيْتَ عُقْدَةَ حَبْلِهِ فــانحَلَّت[2]

وَلَنِعْمَ حَشْــوِ الــدِّرْعِ أَنْتَ لَنَــا إذا

نَهِلَتْ من العَلَق الــرِّمـاحُ وَعَلَّتْ[3]

نرى في هذا المقطع أن زهيراً يذكر عِظم المصيبة التي حلت على هرم خاصة وعلى غطفان عـامة إذ أعلن الناعون وفاة خير الناس، سنان أبي هرم، فكانت خسارتهم عـظيمة ومصيبتهم جليلة لأن سنـان أهل للعـديد من الخصـال الطيبـة كحدبـه عـلى الفقـراء والمحتاجين الذين لا يقوون على إطعام أنفسهم وهم لا حول لهم ولا طول فوجـدوا فيه خـير مُفَرِّج للكـرب والغم وقد رد إليهم كرامتهم بعد أن كانوا ملعَّنين في أقوامهم. وسنان، إضافـة إلى كرمه، فارس شجاع وسند للقبيلة إذا ما انهالت سيوف الأعداء على رجالها ونهلت من دمائهم فيجـدون فيه خـير مخلص للقبيلة

(١) ـ الركاب: الإبل. ذا مرة: ذا عقل. نخل: موضع. جنوب: نواح.

(٢) ـ المدفع: الفقير الذي لا قيمة له. الملعّن: الذي يكثر الناس في لعنة الخساسة.

(٣) ـ نهلت: شربت. العلق: الدم.

ومنقذ لشرفها، وهو بهذا خير من يضع على جسمه درعاً ويحمل سيفاً.

أما المقطع الثاني فهو في رثاء ولده سالم بن زهير. وقصة سالم طريفة. إذ أن امرأة من العرب كانت بجوار ماء النُتاءة فمر سالم على فرس وعليه بردتان جميلتان أهداهما إليه زهير والده. فقالت المرأة على الفور ما رأيت كاليوم قط رجلاً ولا بردتين ولا فرساً، فعثرت به الفرس فاندقت عنقه وعنق الفرس وانشقت البردتان فقال زهير يرثيه بقوله:

رَأَتْ رَجُلاً لاَقَى من العَيْشِ غِبْطَةً
وأخطأهُ فيها الأمور العظائِمُ
وَشَبَّ لهُ فيها بنون وتُوبِعَتْ
سَلاَمَةُ أَعْوَامٍ لَهُ وَغَنَائِم
فأصبحَ مَحْبُوراً يُنَظُّرُ حَوْلَهُ
تَغَبُّطَهُ لَوْ أَنَّ ذَلك دَائِمُ
وَعِنْدي من الأيامِ ما لَيْسَ عِنْدَهُ
فَقُلْتُ: تَعَلَّمْ إنما أَنْتَ حَالِمِ
لَعَلَّكَ يَوْمَاً أن تُرَاعَ بِفَاجِعٍ
كما راعني يوم النُّتاءَةِ سالم

وزهير في هذه الأبيات عندما نزلت عليه هذه الفاجعة المؤلمة وأحس بوقعها فإنه تحملها متصبراً وألمّ بها بشكل عظيم كونه يعلم

من الأيام ما لا يعلمه الآخرون، فأحب أن يوجه للمتمادين في أمور الحياة نصيحة وهي أن يعدوا لكل أمر عدته حتى لا تفزعهم الفواجع وترعبهم وتروعهم كما فجعت زهيراً بولده عندما سقط عن فرسه ميتاً يوم النتاءة.

إننا في هذه الأبيات نرى أن عاطفة زهير تجاه ولده كأب كانت عاطفة هادئة متزنة موجهة تدل على تمكن هذا الرجل، زهير، من السيطرة على أعصابه بشكل نراه فيه يعظ الناس ويرشدهم بدلاً من أن يأتيه الناس مؤاسين وهم يطيبون خاطره؛ وهذا الأمر يعود إلى واقعية زهير وشدة تعقله وترصّنه واتزانه وصبره وثباته أمام نكبات الدهر ونوازله.

وهل في هذا المجال أجمل من هذه الصورة التي يقف فيها صاحبها يدعو الناس إلى الاستعداد والتهيؤ لما قد يفاجأون به من مصائب الدهر في حين أن المصيبة في داره واقعة؟ وهل ترى أجمل من هذا التجريد أمام نفسه ليخفف من وقع الفاجعة عليها.

الهجاء في شعر زهير

أما زهير في الهجاء، فلم يفرد له باباً خاصاً به، كما لم يفرد لغيره من الفنون والأغراض، لأن طبيعة حياته الخاصة لم تفرض عليه ذلك، خصوصاً، وأنه قد ارتبط بآل غطفان وعلى رأسهم هرم بن سنان وحصن بن حذيفة المري. ولكن هذا لا يمنع من أن تصادف زهيراً في حياته أمورٌ مهمة قد دفعته إلى هجاء مسببي تلك الأمور. فمن ذلك عندما أغار الحارث بن ورقاء وهو أحد بني أسد، على قبيلة زهير مزينة، وأخذ فيما أخذه، غلام زهير يساراً وأموالاً لزهير نفسه؛ الأمر الذي أفلت عقال لسان زهير في الهجاء حيث هجا الحارث بن ورقاء هجاء يميل فيه زهير إلى التهديد أكثر مما يميل إلى الهجاء المر المقذع الذي يهتك الأعراض وفي ذلك يقول زهير:

يا حارِ لا أُرْمَين منكُم بداهِيَةٍ
لَمْ يَلْقَها سُوقَةٌ قبلي وَلاَ مَلِكُ(١)

أُرْدُدْ يساراً ولا تَعْنُف عَلَيْه وَلاَ
تَمْعَك بِعَرْضِكَ إن الغادِرَ المعِكُ(٢)

---

(١) ـ يا حارِ: مرخم يا حارث.

(٢) ـ تمعك: تماطل.

وَلاَ تَكُونَنْ كَأَقْوَامٍ عَلِمْتُهُمُ
يَلْوُونَ ما عِنْدَهُ حتى إذا نُهِكُوا[1]

طَابَتْ نُفُوسُهُمُ عَنْ حَقِّ خَصْمِهِمُ
مَخَافَةَ الشَّرِّ فارْتَدُّوا لما تركوا

تَعلَّمَنْ ! ها، لَعَمْرُ الله، ذا قَسَماً
فاقْدِرْ بِذَرْعِكَ وانظُر أَيْنَ تَنْسَلِكُ[2]

لَئِنْ حَلَلْتَ بِجَوٍّ في بني أَسَدٍ
في دِينِ عَمْرو وَحَالَتْ بَيْنَنا فَدَكُ[3]

لَيَأْتِيَنَّكَ مِنِّي مَنْطِقٌ قَذِعٌ
بَاقٍ كما دَنَّسَ القُبْطِيَّةَ الوَدَكُ[4]

فزهير في هذه الأبيات يتوعد الحارث ويتهدده مقسماً إذا ما عامل غلامه بالعنف ولم يرده إليه فإنه سينزل فيه أقذع الكلام وأبشعه حتى ليصبح ذكر بني أسد كدنس تلك الثياب البيض التي تتصاعد منها رائحة الدهن النتن وسيبقى هذا الهجاء والذم خالداً فيهم على الزمن.

ولما أحس الحارث بجدية تهديد زهير أعاد إليه غلامه وأمواله

---

(١) ـ يلوون: يمطلون. نهكوا: شتموا.

(٢) ـ فاقدر بذرعك: أي بخطوك. تنسلك: حيث يمكن أن ينال منك.

(٣) ـ دين عمرو: دين عمرو بن هند ملك العراق في طاعته. فدك: اسم أرض.

(٤) ـ القذع: القبيح. باق: خالد. القبطية: الثياب البيض. الودك: الدهن النتن.

دون أن يستجيب الحارث إلى نصيحة قومه الذين دعوه إلى قتل الغلام يسار، ليروا ما سيحصل من أمر زهير ، الأمر الذي أغاظ زهيراً كثيراً فهجا بني أسد هجاءً مقذعاً فعلاً لما يحمله من الكلمات النابية والصفات المغرضة ولا مجال إلى ذكره هنا. علماً بأن زهيراً ، وفاء منه للحارث الذي رد إليه أمواله وغلامه ، قد مدحه مدحاً لا يقل أهمية عن مدح هرِم بن سنان وحصن بن حذيفة بن بدر.

وأما آل حصن الذين نزل فيهم رجل من غطفان فأكرموه فأحسنوا جواره. وكان هذا الرجل كثير المقامرة، فنهوه مراراً إلى أن رهن زوجته وابنه فمنعوهما عنه ولم يردوهما إليه كما فعلوا في المرات السابقة لأنه لم ينته عن المقامرة . فشكا ذلك الرجل أمره إلى زهير، فتأثر زهير بهذه القصة وهجا آل حصن وذلك دون أن يتحقق من صدق الرجل الغطفاني أو كذبه، فندم فيما بعد ندماً عظيماً لتسرعه وعدم تحققه. وفي آل حصن يقول زهير هاجياً:

وما أدري وَلَستُ إخالُ أدري
أَقَومٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِساءُ
فإن تَكُن النساء مُخَبَّآتٍ
فَحُقَّ لكل محصنة هِداء[1]
وَلَمْ أرَ مَعْشَراً أَسَرُوا هَدِيّا
وَلَمْ أَرَ جَارَ بيت يُسْتَبَاءُ[2]

---

(١) ـ المحصنة: ذات الزوج. الهداء: الزواج.

(٢) ـ الهدي: الرجل ذو الحرمة وهو المستجير بالقوم. يستباء: تؤخذ زوجته.

وَجَـارُ البيت والـرجـل المُنـادِي

أمَامَ الحَيِّ عَـقْـدُهُـمَـا سَـوَاءُ[1]

وزهير في هذه القصيدة يندد بصفات آل حصن المعنوية حيث يتعرض لهم بالسخرية لأنهم نكثوا عهود الجار مع أن الجـار من خلال هذه العهود يتساوى حظاً وحقاً مع عموم أفراد القبيلة.

---

(١) ـ المنادي: المجالس.

الحكمة في شعر زهير بن أبي سلمى

لم نر أن زهيراً، في شعره، قد أفرد للحكمة باباً خاصاً به، ولكن هذه الحكمة عنده لم تكن عفو الخاطر جاءنا بها للتفكه والتندر، وهو المشهود له بالرصانة والاتزان، وإنما كانت نتيجة تعمل ومعاناة كان يعيشهما الشاعر ويبثهما، في ثنايا شعره، عندما تتاح له فرصة التحدث عن أمر جلل أو مدح رجل عظيم... فهنا يكون لزاماً عليه أن يضمن هذه الحكمة شعره مجسداً أبعادها ومعانيها علّه يجد في ممدوحه خير منفذ لها على الأرض، أو لعله يجد في الناس مَن يستلهم تلك المعاني والأبعاد فيعمل بين الناس على تكريسها وبث محتواها حتى تغمر السعادة الإنسان.

وكيف لا يتجه زهير إلى الحكمة، ويضمنها شعره، وقد عركته الحياة وصقلت ذهنه التجارب ونما عقله على التمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، والحب والكره، والحرب والسلم... وتسامت إرادته وهي تتطلع إلى كل ما يؤنس ويخصب... وكيف لا يكون كذلك وقد ذرف عمره على الثمانين فأسمعه

يقول بعد أن كاد السأم أن يأخذ منه:

سئمت تكـاليف الحيـاة ومن يعش
ثمـانين حـولاً لا أبا لـك يسـأم
وأعـلم عـلم اليـوم والأمس قبـله
ولكنـني عن عـلم مـا في غـد عمِ
رأيت المنـايا خبط عشـواء من تُصب
تمته ومن تخطىء يعمّر فيهرم

فماذا ترى من خلال هذه الأبيات؟ أو لا ترى أن سني عمره قد جعلته يميل إلى التشاؤم الواضح وهو لا يعلم من حياته إلاّ ما تمّ في أمسه وحاضره، وأما ما يخبئه له القدر في غده فهو مظلم مجهول أسود ولا يمكنه أن يتنبأ عنه بأي شيء؟ وهنا تراه، وكأنه قد استسلم لليأس أمام المنايا التي تسير كناقة عشواء ولا يموت إلاّ من يقع تحت أخفافها وأما من ينجو منها فتمتد به العمر حتى يقتله السأم واليأس والعجز؟ وقد يصل إلى أرذله.

ومن تكون هذه حاله من السأم واليأس والتشاؤم أليس حريّاً به أن ينطلق لسانه من عقاله يعظ الناس ويرشدهم إلى أمور حياتهم من خلال استخلاصه لعبر الماضي وصروفه؟ فيجد بذلك نفسه مدفوعاً إلى الدعوة إلى السلم ونبذ الحرب كقوله:

ومن يعص أطـراف الزِّجـاح فـإنـه
يطيـع العـوالي رُكِّبت كـل لهـذم

ليؤكد للمتقاتلين من عبس وذبيان، وللأجيال المقبلة فيما بعد، بـأن من لا ينصاع إلى نبـذ آلات الحرب فهـو لا محالـة واقع في ويلاتها.

وأما قوله:

ومن لا يصـانـع في أمـور كثيـرة
يضرّس بأنياب ويوطأْ بمنسم

فماذا تراه يقـول للإنسان الـذي لم يدخـل الحياة من بـابها الواسع فيسبر أغوارها ويدرك أبعادها غير قوله هذا، وما غايته من ذلك إلا ليشد عزائم الناس كي يعملوا باستمرار على التدرب على تنمية مواهبهم ومداركهم حتى لا يصبحوا لقمة لينة أمام نكبات الدهر وصروف الأيام.

وأما أولئك الذين يرون الموت يطاردهم فيتمادون في الهروب، فلم ينسهم زهيرٌ إذ يقول فيهم:

ومن هـاب أسبـاب المنـايـا يَنَلْنَـهُ
وإن يرقَ أسباب السماء بسلّم

وأمـا الذين يحـاولون إخفـاء نقـائصهم عـلى النـاس ، وهم يتسترون وراء أصابعهم فيقول لهم:

ومهـما تكن عنـد امـرىء من خليقـة
فإن خالها تخفى على الناس تعلم

فهذه النقائص والخلال السيئة لا بد لها من أن تعلم مهما طال الزمان على إخفائها خصوصاً وإن الطريق الطويل كشاف للعيوب.

وأما الذين يلحفون في الطلب فينالون... فأمرهم لن يطول لأن لكل شيء نهاية:

سألنا فأعطيتم وعُدْنا وعُدْتُمُ
ومن أكثر التسآل يَوماً سيُحْرَمِ

فاللجاجة والإلحاف أمرٌ ممض ومزعج فلا يجوز التمادي بهما والاندفاع وراءهما لأنه لا يجوز لنا أن نشرب البحر حتى نحس بطعم الملوحة.

وإذا جئنا بطلب النَّصَفِ من زهير فنراه يقول:

فإن الحقَّ مقطعُه ثلاثٌ
يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاء

فقد عد القدماء زهيراً بهذا البيت بقاضي الشعراء وفي طليعة هؤلاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث أعجب من صحة التقسيم في هذا البيت فقال: «لو أدركته [زهيراً] لوليته القضاء لحسن معرفته ودقة حكمه».

أما امتداد العمر في حياة زهير فإنه كان باعثاً له على كثرة التأمل والاستبصار الأمر الذي جعل الرواة ينسبون إليه أنه رأى، فيما يرى

النائم، نفسه يقترب من السماء مرتين ويُرَدُّ، فاستنتج عندها أن أمراً من السماء سينزل فأوصى ولديه كعباً وبجيراً أن يفتشا عن صاحبه ويتبعاه إذا وجداه. ألا تدل هذه الرواية، إن صحت، أن زهيراً كان كثير التفكير في خلق السموات والأرض فوجد نفسه مدفوعاً إلى القول بعد التحقق:

تزود إلى يوم الممات فإنه
ولو كَرِهَتْهُ النفسُ آخر موعد

أو قوله:

فلا تكتُمُنَّ الله ما في نفوسكم
ليُخفَى ومهما يُكْتَم الله يَعْلَمِ
يؤخَّر فيوضَع في كتاب فيُدَّخَر
لِيَوْمِ الحِسَابِ أو يُعَجَّل فيُنقَم

معلقة زهير بن أبي سُلمى

إن المتأمل لمعلقة زهَير، لم يرَ أن زهيراً قد خرج على ما تعارف عليه الشعراء الجاهليون من تقليد قد شاع عندهم فيما يتعلق ببناء القصيدة.

فأنت ترى أنه قد بدأ المقطع الأول من المعلقة بطريقة تثير في نفسك أشجاناً كثيرة تكاد أن تشعر معها بإحساس غريب يجعلك تقف مع الشاعر لتتأمل، وبشيء من الحزن، آثار الحبيبة التي عفا عليها الزمن أو كاد، ، وقد أصبحت مرتعاً للظباء والأبقار الوحشية واطلائها وهي تروح وتجيء باتجاهات مختلفة، وخاصة أنه عاد تلك الديار بعد أن مضى على زيارته لها عشرون سنة. وكيف لا تغرب صورة هذه الديار عن مخيلة الشاعر، وهذه السنون العشرون كفيلة بمحو الكثير من معالم الطبيعة لولا أن بقي على ظاهرها ما يرمز إلى ساكني تلك الديار من صور ما زالت ماثلة للعيان فأعادت إلى نفس زهير ما أوشك أن يموت من الأمل بعد أن راودته الظنون وكاد اليأس أن يقتله مما اضطره إلى أن يخاطب الدار محيياً وكأنه يتصور أهلها وهم ماثلون أمام عينيه فيطلب لهم الصباح السعيد والحياة الآمنة بسلام دائم:

أمِنْ أُمِّ أَوْفى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ
بِحَوْمانَةِ الدُّرّاجِ فالمُتَثَلَّمِ[1]
وَدارٌ لَها بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّها
مَراجِعُ وَشْمٍ في نَواشِرِ مِعْصَمِ[2]
بِها العِينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً
وَأَطْلاؤُها يَنْهَضْنَ من كُلِّ مَجْثَمِ[3]
وَقَفْتُ بِها مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً
فَلأْياً عَرَفْتُ الدارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ[4]
أَثافِيَّ سُفْعاً في مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ
وَنُؤْياً كَجِذْمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ[5]
فلما عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِها
أَلاَ انعم صَباحاً أَيُّها الرَّبْعُ واسْلَمِ[6]

---

(١) ـ الدمنة: ما اسود من آثار الدار. حومانة الدراج والمتثلم: موضعان.

(٢) ـ الرقمتان: حرتان احداهما بالقرب من البصرة والأخرى من المدينة. المراجع جمع المرجوع وهو المعاد. نواشر المعصم: عروقه. والمعصم: موضع السوار.

(٣) العين: الواسعات العيون كناية عن الأبقار الوحشية. الآرام جمع رم وهو الظبي الأبيض. خلفة: يخلف بعضها بعضاً. الأطلاء: أولاد الظبي أو البقرة الوحشية. مجثم: محط: مكانة الجثوم.

(٤) ـ عشرين حجة: عشرين سنة. اللأي: الجهد، المشقة.

(٥) ـ الاثافي: جمع الأثفية: حجارة توضع عليها القدر. المعرس: المنزل من النزل. المرجل: القدر. النؤي: خندق يحفر حول الخيمة ليجري فيه الماء. الجذم: الأصل.

(٦) ـ انعم صباحاً: طب عيشاً. لربعها: لساكنيها.

فهذه الصور، في هذه الأبيات، مألوفة في الشعر الجاهلي كأن يشبه الشاعر آثار الحبيبة ب« باقي الوشم في ظاهر اليد» على حد قول طرفة بن العبد، أو يصور الدار وهي «تـروح عليها الإبـل والشاء» أو يستدل عليها من خلال الأحجار السوداء التي كانت توضع عليها المراجل والقدور، أو من خلال القنوات التي تحضر حول الخيمة حتى لا تدخلها المياه. . . فكل هـذه الصور الحيـة مستوحاة من واقع الحياة البدوية التي كـانت تربط مـاضي زهير بحاضره فتتجدد الذكرى في نفسه ويلفه الحزن العميق وهو يتأمل تلك الديار التي عرفها بعد جهد جهيد. وهو بهذا لم يكلفنا الكثير من العناء إذ يكتفي بإيراد القليل من الصور بأسلوب سهل رشيق جذاب لينفذ من خلاله إلى عمق التجربة الحسية التي يغنيها في تقصي صوره التي يضعها أمامنا ببساطة موحية وألوان زاهية. فهذه الصور على زهاوتها ونقاوتها ونصاعتها ، فهي إما مفرحة كصورة الأبقار والظباء والأطلاء وهي تتحرك بحرية تامة، ولا يزعجها في ذلك إلا مشاكسة الوحوش المفترسة لها، ففي هذه الصورة تمثيل للحياة البدوية بكل صورها ومعانيها لأنها تذكر الشاعر بأم أوفى، حبيبته، التي كانت تغمرها الفرحة، قبل ذلك، على ربوع تلك الديار. وهي ، هذه الصور، إما محزنة لما تحمله من علائم البلى والخراب التي إن دلت على شيء فإنما تدل دلالة قاطعة على ظاهرة الموت الفناء والزوال التي تبعث في النفس الإنسانية مزيـداً من اللوعة والأسى. . . فزهير لذلك مذعن لصروف الدهر وتقلبات

الأيام لأن حياة كهذه هي في آن معاً مدعاة للتأمل والحيرة، ومن يكن في مثل سنه لا يجد بداً من أن يقتبس من تلك الصروف القاهرة حكماً تخلد على الزمن، فنفسه « نفس الحكيم الذي لا يزدهيه فرح ولا حزن ولا تستخفه عاطفة مهما تكن»، وهو عندما وقف يحيي الدار بعد أن تحقق من معرفتها قد فاضت نفسه بعاطفة جياشة قوية، ولكن هذه العاطفة لم تدفعه إلى التبذل والإسفاف، كما عبرت عن شوق عميق ولكنه لم يدفعه إلى الاستخفاف بتلك العاطفة الحزينة التي لم تدفعها نشوة الطرب الى الخروج بها عن جادة الرجل المتزن الذي سبر الحياة، وغاصت نفسه في لجتها فبدا وكأنه يمسك زمام النفس فلم يخرج بها عن الطريق المستقيم الذي تأباه الرجولة الحقة.

وإذا كان شاعرنا قد عرف الدار بعد لأي ومشقة فتصور رحيل الأحبة وأنهن يتحركن تحت سمعه وبصره وهو يتتبع كل حركة من حركاتهن وعلى مدى لا يحول دون مد البصر ولا يزيد عليه، فاسمعه يقول:

تَبصَّرْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى من ظَعائِنٍ
تَحَمَّلْنَ بالعَلْيَاءِ من فوق جُرْثم[1]

---

(١) ـ الظعائن: جمع ظعينة وهي الراحلة. العلياء: الأماكن العالية. جرثم: ماء بعينه.

جَعَلْنَــا القَنَــانَ عن يمــين وَحــزْنَــهُ

وكم بــالقَنَــان من مُحَــلّ ٍ مُحْرِم[1]

عَــلَوْنَ بـأنمــاطٍ عِــتَــاقٍ وكِــلّةٍ

ورادٍ حــواشيهـا مُشَــاكهـةِ الــدم[2]

وَوَرَّكْنَ في السُّــوبــان يعلون مَتْنَــهُ

عَــلَيْهِــنَّ دلُّ النــاعِــم ِ المُتَــنَــعِّــم[3]

بَكَــرْنَ بُكــوراً واسْتَحَــرْنَ بِسُحْــرَةٍ

فــهُنَّ لــوادي الــرَّسِّ كــاليَــدِ للفَــم[4]

وفــيــهــنَّ مَــلْهَــى لِــلَّطِيــفِ ومــنــظَرٌ

أنيقٌ لِعَــيْنِ النــاظِــرِ المُتَــوَسِّم[5]

كــأن فُتَــاةَ العِهْن في كُــل مَنْــزِل ٍ

نَــزَلْنَ بِــهِ حب الغنــا لم يُحَــطَّم[6]

---

(١) ـ القنان: جبل لبني أسد. الحزن: ما غلظ من الأرض وكان مستوياً. المحل: من دخل في أشهر الحلال، والمحرم من دخل في أشهر الحرام أو الحُرم.

(٢) ـ علون: ارتفعن. انماط: ما يعرض من صنوف الثياب. العتاق: الكرام. الكِلة: الستر الرقيق. الوراد: جمع ورد وهو الأحمر. المشاكهة: المشابهة.

(٣) ـ السوبان: أرض مرتفعة. التوريك: الركوب على الورك. الدل: الغنج.

(٤) ـ بكرن: سرن باكراً. استحر: سار سحراً. وادي الرس: موضع بعينه.

(٥) ـ الملهى: مكان اللهو. التنعم: التلذذ بالنعمة. الأنيق الجميل. اللطيف: الحسن.

(٦) ـ الفُتات: ما يتقطع من الشيء وينحت عنه. العهن: الصوف المصبوغ. حب الغنا: عنب الثعلب.

فلما وَرَدْن الماء زرقا جمامُهُ
وَضَعْنَ عِصيَّ الحاضرِ المُتَخَيِّمِ (١)
ظَهَرْنَ من السُّوبان ثم جَزَعْنَهُ
على كُلِّ مَبْنِيٍ مَشيب وَمُفْأَم(٢)

أرأيت كيف خاطب زهير خليله وهو يطلب منه التبصر في تتبع آثار الأحبة وتنقلاتهن، ورصد الطريق التي سلكنها والأماكن التي حللن بها؟ أرأيت وصف سير الظاعنين وهن يتسربلن وقد تركن خلفهن قطع الصوف المنثور كحبيبات عنب الثعلب الحمراء التي لم تتحطم بعد؟ أرأيت كيف وصفهن عند ورودهن الماء النمير الصافي حيث وضعن عصا الترحال وخيمن؟

ألا ترى معي أن زهيراً في المقطع الأول قد شفه الوجد ولكنه لم يضنه ويتعبه طول التأمل؟ وكيف تراه في المقطع الثاني؟ ألست تراه فناناً حاذقاً إذ أنه تمكن من وضع بصماته على كل أجزاء صورته في وصف هؤلاء الأحبة خلال حلهن وترحالهن وبدون تكلف منه أو إعنات ذهن منك؟ ألا ترى صدق عواطفه في مدى تعلقه الشديد بحركات الأحبة الظاعنين حتى توصل إلى الاهتمام بما يتناثر من أهداب الهوادج من قطع الصوف، فتات العهن وهو يشبهها

(١) ـ الزرقة: شد الصفاء. الجمام: ما اجتمع في الحوض أو في البئر. وضع العصي: خيّم.

(٢) ـ الجزع: القطع. القيني: حاجب المهنة والمصلح. القشيب: الجديد. المفأم: الموسع.

بحبيبات الغنا الحمراء؟ ولعل تعلق الشاعر بفتات العهن إنما يدل على صدق عاطفته نحو من يحب، فهذه الصورة جميلة فعلاً لما تحمله من البواعث النفسية. إضافة إلى البواعث الحسية التي جسدت تلك الصورة حتى باتت رائعة الجمال لدقة وصفها وإيجاز معانيها وبلاغة محتواها؟ حتى اننا نكاد نلمس أن زهيراً كان يتوخى من ذلك إعمال الروية وكد الذهن وشحذ القريحة لأن هناك أمراً مهماً لا يقل شأناً عن وصفه لديار الأحبة وتتبع دائب حي للظاعنين عنها واللواتي نزحن وبعدن عن عينه منذ أكثر من عشرين حجة، بل هذا الأمر أهم من ذلك الوصف بكثير.

ولأجل ذلك لم نر زهيراً يلجأ إلى وصف راحلته، على عادته في معظم قصائده، حيث يلجأ إلى تشبيهها بالبقرة الوحشية، أو حيث ينصرف إلى وصف عمليات الطرد والصيد وهو يستطرد من فكرة إلى فكرة ومن صورة إلى صورة.

فلماذا يا ترى قد أضرب زهير عن تلك العادة التي جرى عليها شعراء الجاهلية؟

حقاً إن هناك أمراً مهما قد شغل زهيراً عن تلك العادة في هذه المعلقة.

ألا يحسن أن يكون هذا الأمر الجلل هو ما قام به السيدان الكريمان هرِم بن سنان والحارث بن عوف اللذان استطاعا أن يُرْسِيَا قواعد السلام بوضعهما حداً للحروب الطاحنة التي

استمرت قروناً بين قبيلة عبس من جهة وبين بني ذبيان من جهة ثانية وهما أصلاً يعودان إلى جد واحد هو غطفان؟

وإذا وقف زهير مقسماً ليعلن على الملأ ويهتف بالفم الملآن أنّ هرِماً والحارث سيدان لا يجاريان في عملهما الفذ الذي إن دل على شيء فإنما يدل على ما يتمتعان به من أريحية ونبل وكرم وحلم ومروءة وشجاعة فاسمعه يقول:

يميناً لَنِعْمَ السيدان وُجِدْتُما
على كلِّ حال من سَحيل ومُبْرَم[١]
تَدارَكْتُما عبْساً وذُبيانَ بَعْدما
تَفانَوْا ودَقُّوا بيْنَهم عِطر مَنْشم[٢]
وقد قلتُما إن نُدْرِكِ السلم واسعاً
بمالٍ ومعروف من القول نَسْلم[٣]
فاصبحتُما منها على خير مَوْطِنٍ
بَعيدَيْن فيها من عقوق ومأثم[٤]

(١) ـ السحيل: المفتول على قوة واحدة. المبرم: المفتول على قوتين أو أكثر حيث يستعار السحيل للضعيف والمبرم للقوي.
(٢) ـ التدارك: التلافي. التفاني: التشارك في الفناء. منشم اسم علم يعمل في العطارة التي ترش على الموتى.
(٣) ـ السلم: الصلح، يذكر ويؤنث.
(٤) ـ العقوق: العصيان، وفلان عاق أي غير منتج. المأثم: من الإثم وهو الخطأ.

عــظيمــين في عُليــا معــد هُــديتُما
ومن يستبحْ كنزاً من المجد يَعْظُم[1]
تُعَفّى الكلوم بــالمئــين فــأصبحت
يُنَجِّمُهــا من ليس فيهــا بمُجْــرِم[2]
يُـنَجِّمُهــا قــومٌ لـقــوم غــرامــةً
ولم يُهَرِيقوا بيْنَهُمْ ملءَ مِــحْجَــم[3]

تبرز في هذا المقطع صورة السيدين العظيمين، هرِم بن سنان والحارث بن عوف، اللذين أبت عزيمتهما ومروءتهما إلا أن يتداركا عبساً وذبيان بعد أن كاد الفناء أن يشملهما فصرخ ذانك السيدان عالياً: السلم. فإنا إن وضعنا دعائمها نسلم وتسلم بعدنا العشائر كلها. فأمر السلم عندهما عظيم جداً خصوصاً إذا قام به من يتصف بكرم الخلق، قولاً وفعلاً، فكريم الخلق هو الذي يجعل من عمله بلسماً للجراح لا خنجراً يزيد الجراح اتساعاً وهولاً. وهرِم والحارث هما كريما الخلق فعلاً لأنهما استطاعا أن يبعثا في النفوس الأمل والرجاء فاستباحا بذلك كنوز المجد وجعلاهــا صرحاً لهما مباحاً ولا يلجه إلاّ من كان في صفهما عملاً وكرماً

---

(١) ـ العليا: تأنيث الأعلى. هديتما: دعا لهما بالهدية. الاستباحة: جعل الشيء مباحاً للجميع ولا حرج في تناوله.

(٢) ـ الكلوم: الجراح. التعفية التمحية، تعفى: تمحى. ينجمها: يعطيها نجوماً. المئين من الإبل: المئات.

(٣) ـ يهريقه: يسيله. المحجم: آلة الحجامة وهي ما يؤخذ بها اليوم عينة من الدم.

ونبلاً. وكيف لا يكونان كذلك وقد حقنا دماء من تبقى من الرجال يبذلهما المئات من الإبل كديات للقتلى حتى بدت تلك الديات وكأنها النجوم الهوادي، ولم يقبلا بعد ذلك أن يهرق حتى ولو محجم واحد من الدم بين المتقاتلين.

لقد مدح السيدين فأباح لهما كنوز المجد يستدران منهاما يشاءان، وهما، إلى ذلك، على جانب عظيم من طيب الأرومة وكرم المحتد وأثالة النسب لأنهما في عليا معد فلا يمكن أن يباريهما أحد من الخلق. ولم يكن تقديم المدح عبثاً إلا لأن الأمر، الذي جاء به هرم والحارث، أمر عظيم لأنه يحمل في طيه دعوى السلم التي كانت مطمح الناس الأهم، في ذلك العصر، حيث لا شيء أحب إلى النفوس من تلك الدعوى لأن فيها نبذ الحرب التي كانت تمجها العقول الواعية، وتشمئز منها النفوس الطيبة.

وإذا تتبعنا زهيراً في معلقته نراه يذكر بني ذبيان وأحلافهم جميعاً ويسألهم: هل وطنوا النفس على الالتزام بمبدأ السلم؟ أم أنهم يخفون أموراً يعلمها الله فلن ينجو منهم أحد من حسابه في الآخرة؟ وزهير بذلك يوطىء لإبراز صورة الحرب البشعة بقوله:

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة
وذبيان هل أقْسَمْتُمُ كلَّ مُقْسَمِ[1]

---

(١) ـ الأحلاف والحلفاء: الجيران. اقسمتم: حلفتم.

فـلا تكْتُمَنَّ اللهَ مـا في نفـوسِكُـمْ
لِيَخْفَى وَمَـهْـما يُكْـتَم اللهُ يَـعْلَمِ[1]
يؤخـر فيـوضـع في كتـاب فيُـدَّخَـر
ليـوم الحسـاب أو يُعَجَّـل فَيُنْقَمِ[2]
ومـا الحَـرْبُ إلّا مـا عَلِمْتُم وَذُقْتُمُ
ومـا هُوَ عنْهـا بـالحـديث المُرَجَّمِ[3]
مَتَى تَبْعَثُـوهـا تبعَثُـوهَـا ذميـمَـةً
وَتَضْرَ إذا ضَـريتمـوهـا فَتَضْـرَمِ[4]
فتعْـرُكُكُم عَـرْكَ الـرَّحى بثفـالِهـا
وَتَلْقَـحْ كِشَـافـاً ثم تُنْتَجْ فَتُتْئِمِ[5]
فَتُنْتِـجْ لكم غِلْمَـانَ أشـأم كُـلُّهم
كـأحْمَرِ عـاد ثُمَّ تُـرضـع فَتَفْـطِمِ[6]

---

(١) ـ تكتمن: تخفين.
(٢) ـ ينقم: يقاصص. يدخر: يجمّع.
(٣) ـ ذقتم: جربتم واختبرتم. الحديث المرجم: الذي يرجم فيه بالظنون أي يحكم فيه بظنونها غير العقلية التي لا تعتمد على منطق.
(٤) ـ يبعثوها: يرسلوها. ذميمة من الذم وهو القبح. وتضرى: تقوى وتزداد شراسة، والضرى: شدة الحرب. تضرم: تشتعل وتلتهب.
(٥) ـ ثفال الرحى: بساطها. الرحى: المطحنة. اللقح واللقاح: وضع بذرة الحمل. الكشاف: تلقيح النعجة مرتين في السنة. تنتج: تلد.
(٦) ـ الشؤم: ضد اليمن وهو السوء والشر. وأحمر عاد صاحب ناقة عاقر واسمه قدار بن سالف. أي أن العاقر في الحرب تولد وتنتج.

فَتَغْلِلْ لكم ما لا تغِلُّ لأَهْلِهَا
قرى بالعِراق من قفيز ودِرْهَم [1]

ألا ترى أن هذا الكلام يحمل في ثناياه تهديداً مبطناً للذين يحملون في نفوسهم غلاً وحقداً من شأنه أن يذكي نار الحروب إذ لا شيء أوجع على المرء من نار الحروب لأنها محْرَقة النفوس البريئة الطاهرة ومطحنة الرجال الأشداء الذين تعركهم عركاً وتقهرهم قهراً حيث لا تبقى منهم ولا تذر؟

حقاً إن في هذا الكلام تهديداً للذين يحاولون بعث الحرب وإذكاء أوارها لأنها ذميمة قبيحة ولا ينتج عنها إلا فتيان الشؤم، وهم أشد منها أيلاماً وايجاعاً. فزهير هنا قد شبه الحرب أحياناً بالرحى لقدرتها على الطحن وأحياناً بالناقة التي لا تُتْئم إلا بأولاد سوء وشؤم، وأحياناً بالأرض الخصبة التي لا تنبت إلا الشر والنتن، فانظر إلى هذه الصورة المتراكبة المستوحاة من الوسط البدوي للتدليل على ضخامة خطر الحرب وفداحته وذلك بأسلوب سهل يغلب عليه طابع البداوة الخالص.

وزهير، عندما يخاطب ذبيان وأحلافها وهو يذكر بأوزار الحرب وويلاتها وما تدره على الناس جميعاً من نتائج مهلكة مدمرة، يظهر وكأنه شاعر الناس جميعاً، وهو بذلك يتحسس ما يتألم منه البشر

(١) ـ تغلل: تعطي غلالاً. فغلال الحرب الدمار وغلال السلم السعادة والاستقرار.

وتكرهه أفئدتهم فيدعو إلى رفع الضيم عن الفئات المسحوقة التي تتوق إلى السلم والحرية، وهو بهذا ليس شاعر الجاهليين فحسب بل هو شاعر الناس جميعاً وعبر العصور.

ألا ترى معي أن زهيراً بهذه الصورة قد خرج على عموم الاتجاه الشعري في العصر الجاهلي إذ أن الصفة الغالبة على شعراء ذلك العصر هي أن يعتمد الشاعر منهم على مبدأ الفخر الذاتي، بنفسه ومآثره من ناحية ، وعلى مبدأ الفخر الجماعي وهو التغني بأمجاد القبيلة من ناحية ثانية حتى ولو كان ذلك الفخر على حساب القبائل جميعها؛ فخالف زهير بذلك الطبع البدوي في حين أن جميع صوره وتطلعاته مستوحاة من واقع تلك الحياة البسيطة، حيث أن ألفاظه ألفاظهم وصوره صورهم وآمالهم وتشابيهه تشابيههم ولكنه فاقهم جميعاً دقة ورقة وجزالة ويسراً وروعة وفكراً خالداً على الأيام.

وعندما يتحدث زهير عن الحرب فإنما هو شيخ مجرب استطاع بأسلوبه البسيط أن يخاطب القوم على مستوى نفوسهم وأفهامهم حيث حاول أن يثير فيهم ما يمكن أن تولده الحرب من الآثار المؤلمة معتمداً في ذلك أسلوب التهكم النفسي إذ أن الحرب لا تنتج قفيزاً ودراهم كما تنتج مدن العراق وإنما تنتج مصنعاً لإزهاق الأرواح الطاهرة وإهراق الدماء الزكية الطيبة.

وأما الذين لم تَرُعْهُم هذه الحرب بما تبعثه في الناس من قتل وتجدد ثارات وويلات لأن نفوسهم ما زالت تحمل غلاً عظيماً فناموا

موتورين على الرغم من تنادي الحيين، عبس وذبيان، بالموافقة على شروط الصلح التي دعا إليها السيدان هرِم بن سنان والحارث بن عوف بعد أن تحملا ديات القتلى من الحيين. وهذا الموتور هو حصين بن ضمضم الذي لم ينم على الضيم على حد التعابير البدوية المعروفة، لأن أخاه قد قُتِل في بني عبس، فهو لن يقر له قرار حتى يثأر لأخيه من أي سيد في خصومه، وبات ينتظر الفرصة المناسبة حتى تمكن من قتل ورْدَ بن حابس العبسي ثأراً لأخيه هرِم ابن ضمضم، الأمر الذي أثار الحرب من جديد فأرسل الحارث بن عوف إلى العبسيين ولده وفلذة كبده، ومائة من ا لإبل، ولهم أن يختاروا بين الإبل أو بين قتل ولد الحارث، فاختاروا الإبل ولاذوا إلى السلم فانتهت تلك الحرب الضروس التي أراد حصين بن ضمضم إيقادها من جديد:

لَعَمْري لَنِعْمَ الحيّ جَرَّ عليْهِمُ
بما لا يُؤاتِيهِ حُصَينُ بنُ ضَمْضَمِ [1]
وكان طوى كشحاً على مُسْتَكِنِّهِ
فلا هو أبداها ولمْ يتجَمْجَمِ [2]

---

(١) ـ جر عليهم: جنى عليهم. والجريرة الجناية. يؤاتيهم: يوافقهم. فحصين بن ضمضم لم يجمتع مع القوم على الصلح لأن ورد بن حابس العبسي قد قتل هرِماً أخا حصين الذي توارى حتى تمكن من قتل ورد.

(٢) ـ الكشح: منقطع الأضلاع وهو هنا كناية عن إضمار العداوة. المستكن: الملتجيء إلى السكون لأنه لم يعرض عن نواياه.

وقــال ســأقضي حــاجتي ثم أتقي

عــدوي بـألفٍ من ورائي مُلْجَمِ[١]

فشــد فلم يفــزع بيــوتــاً كـثيــرة

لدى حيث ألقَتْ رحلها أُمُّ قَشْعَمِ[٢]

لدى أسدٍ شــاكي السِّلاح مُقَــذَّفٍ

لــه لَــبِــدٌ أظـفــارُهُ لَمْ تُــقَــلَّمِ[٣]

جـريءٍ متى يُـظْلَمْ يعـاقب بـظُلْمِـهِ

سـريعاً وإلاّ يبـدَ بالـظلم يَـظْلِمِ[٤]

انظر معي إلى الأسلوب الذي اعتمده زهير في إظهار العديد من العادات البدوية. فهو على الرغم من إيقاف نار الحرب فقد أحس أن هناك من الناس من يضمر في نفسه السوء والضغينة حتى يحقق المأرب الذي يخفيه عن قومه الذين وافقوا على شـروط السلم، وقد تحصن لتحقيق مأربه الذي طواه وخبأه في نفســه بألف فارس من أبناء قبيلته لأنهم لن يتخلوا عنه سواء أكــان ظالماً أو مظلوماً، فحصين مطمئن إلى أنه لن يكون وحيــداً إذا ما نقض الصلح وثار لأخيه، ولذلك شد على خصمه وانـزل

(١) ـ اتقي: أتجنب. اي أحمي نفسي بألف فارس يقفون ضد عدوي.

(٢) ـ شد: حمل. الإفزاع: الإخافة. أم قشعم: كنية المنية.

(٣) ـ شاكي السلاح: تامه. مقذف: يوثق به في المعارك فيقذفونه إليها له لبد: أي هو كالأسد غير مقلم الأظفار ولم يجدع أنفه في حرب أو في سلم.

(٤) ـ جريء: شجاع. ويبد: حذف الألف من آخره للجازم بعد أن كانت يُبدأ، حيث قلبت الهمزة ألفاً.

عليه المنية كأسد هصور شاكي السلاح «لا تخيفه حــرب ولا يذعنه سلم»، وهو بذلك شجاع لا يرضى بالظلم بل يعــاقب عليه سريعاً كما أنه لا يتورع عن إنزال الظلم بالآخرين.

أوليس جميلاً من زهير أن يندد بعمل حصين بن ضمضم الذي نكث بوعد أسياده وهو على ما هو من الشوكة والبأس؟ فحصن بطل فارس مغوار يبدأ بظلم الناس لشجاعته وتسلطه ولكنه في نـظر زهير قد أضر بفكرة السلم السامية التي هي مطمح من مطامـح جميع الناس في عصر ما قبل الإسلام. فزهير بهذا ناقد سيـاسي إجتماعي يوجه الناس إلى ما ينبغي أن يتجهوا إليه لما فيه خيرهم وسعادتهم. وهو بهـذا يرفض، تصـريحاً وتلميحـاً، للعديـد من العادات الجاهلية البدوية، ويثور عليها إذ لا شيء أحب إلى زهير من السلم ومبادئه، ولا شيء أكثر كرهاً عنده من الحرب التي لا يخلو منها حي من أحياء العرب في الجاهلية لأن حياتهم كانت على رؤوس رمـاحهم، ولا ينتهـون من حـرب حتى يبـدأوا بحــرب جديدة. فانظر إليه كيف أضرب إلى ذكر الحرب ثانية:

رَعَوْا ما رَعَـوْا من ظِمْئِهِم ثُمَّ أَوْرَدُوا
غِمـاراً تفرَّى بـالـرمـاح وبـالـدم[1]

---

(١) ـ الظمأ: الغل. الغمار جمع غمر وهو الماء الكثير. التفري: التشقق والتفريق. والمعنى: رعوا إبلهم الكلأ حتى إذا عطشت أوردوها مياهاً كثيرة، وهذا كله استعارة لأن المراد أنهم كفوا عن القتال مدة كما ترعى الإبل مدة ثم عادوا إلى الحرب كما ترد الإبل الماء الوفير.

فَقَضُّــوا مَنــايــا بَيْنَهم ثُمّ أَصْــدَرُوا
إلى كَــلأٍ مُسْتَــوْبَــلٍ مُتَــوَخَّــم[1]

ألا ترى كم هي بشعة ودميمة صور تلك الحروب حيث يرد معها أبطالها إلى مياه غزيرة تسيل دماً ثم لا يلبثون أن يصدروا عنها إلى كلأ ليس فيه إلاّ الأوبئة والكوارث الوخيمة، التي من شأنها أن تملأ صدور الناس حقداً وضغينة وهم يستعدون للحروب من جديد، ولكن هذه الحروب قُيِّضَ لها أن تنتهي لأن العاملين على إخمادها لم تشترك رماحهم في أذكاء أوارها حيث أنهم لم يسفكوا دماً كما أنهم لم يسهموا بسفك دمائهم لتجنبهم الإسهام في الحرب من بعيد أو من قريب ولكن جل همهم كان أن توقف تلك الحروب التي لن يكون فيها رابح مهما كانت النتيجة فلذلك ترى هرِم بن سنان والحارث بن عوف قد عقلا دماء القتلى بدفع الديات لمستحقيها من عبس وذبيان وحقنوا الدماء في صدور الناس بعد أن طيبوها بالحب والأمل والسعادة إذ أرسلا الديات إلى أهل المقتولين فعصما بذلك الناس من الوقوع في أي عظيم وخصوصاً إذا ألمت بهم حدثان الزمان أو إذا حاول أصحاب الأحقاد والضغائن أن يُنزلوا فيهم شرورهم وآثامهم وجناياتهم إذ أصبح المتقاتلون بعد الصلح في مأمن من أي خطر.

---

(١) ـ فقضوا: أتموا. أصدرت: ضد أوردت. استوبلت الشيء وجدته وبيلاً واستوخمته وجدته وخيماً. والوبيل والوخيم الذي لا يُستمرأ أو يلذ تناوله.

أفلا ترى أن زهيراً في هذا المقطع يحاول أن يبين المآثر العظيمة التي حققها ساعيا الصلح حيث تناديا: السلم فأصبح الحيان في مأمن من أي إعتداء إذ طابت النفوس وصفت النوايا وأمحت الأحقاد والأضغان من الصدور ولم يعد باستطاعة الجناة أن يثيروا الفتن ويعبثوا بأمن الناس وحياتهم لأنه لم يَبْدُ في الحيين أيُّ مغبون بفضل عمل داعيي السلم اللذين لا يضارعهما في عملها أي إنسان مهما كان عظيماً فاستباحا بذلك كنوز المجد لعظيم تضحيتهما التي ينبغي أن تكون التضحيات مثلها:

لَعَمْرُكَ ما جَرَّتْ عليهم رماحُهُم
دَمَ ابن نهيك أو قتيل المُثلّمِ [1]
ولا شارَكَتْ في الموتِ في دمُ نَوْفَلٍ
وَلاَ وَهَبٍ منْهَا ولا ابْنِ المُحَزَّمِ [2]
فكُلاًّ أراهُمْ أصْبَحُوا يَعْقِلُونَهُ
صَحِيحَاتِ مَالٍ طالعاتٍ بِمَخْرِمِ [3]
لِحَيٍّ حَلاَلٍ يعصِمُ الناسَ أمْرُهُم
إذا طرقت إحدى الليالي بِمُعْظَمِ [4]

---

(١) - أي أن الساعين إلى الصلح لم يسهموا في حرب فرماحهم نظيفة.

(٢) - الأسماء التي وردت في هذا البيت والبيت الذي قبله من أعيان عبس وذبيان من الذي قتلوا في الحرب وقد دفع دياتهم هرم بن سنان والحارث بن عوف.

(٣) - عقلت القتيل: وديته أي دفعت ديته. المخرم: طرف الجبل. طالعات: عاليات.

(٤) - يعصم: يمنع. الطروق: الإتيان ليلاً.

كِـرَامٍ فَـلا ذُو الضِّغْنِ يُـدْرِكُ تَبْلَهُ
ولا الجَارِم الجاني عَلَيْهِم بمُسْلَمِ [1]

وإذا كان زهير قد استكمل كل معاني المدح في رجلين عظيمين كهرم بن سنان والحارث بن عوف فإنما يكون في عمله هذا قد رسم صورتين بارزتين: الصورة الأولى صورة الإنسان المثال الذي ضحى بكل ما يستطيع حتى يجعل في كل عين دامعة فرحة، وعلى كل شفة حزينة بسمة، وفي رحاب النفس اليائسة المظلمة ضياء من الأمل والرجاء. والصورة الثانية هي صورة الحرب الذميمة البشعة التي لا تنتج إلا الويل والدمار والأحقاد. وكيف لا يصور زهير ذلك وهو قد ذرَّف على الثمانين من الأعوام إذ أن من طبع الإنسان المتزن ، في مثل هذه السن، أن يعرض للناس ما هو نافع لهم في مستقبل حياتهم، وكأنه في هاتين الصورتين يريد أن يَعِظَهُم فيدفعهم إلى تقليد الإنسان المثال كما عليهم أن يبتعدوا عما يجلب الشر للآخرين. وهو بهذا رجل معلم أراد أن يعلمنا كيف ينبغي أن يكون كريم الخلق الذي يعمل دائباً على توطيد عرى المحبة بين أبناء المجتمع الواحد حتى يساهم في بناء صرح الإنسانية السعيد.

ولنستمع إلى زهير في مقطعه الأخير من المعلقة، فكيف تراه؟

---

(١) ـ الضغن والضغينة: ما استكن في الصدر من الحقد والعداوة. التبل: الحقد. الجارم: الجاني.

سئِمْتُ تكـاليفَ الحيـاة ومن يَعِشْ

ثمـانـين حـولاً لا أبـالـكَ يَسْـأَمِ[١]

وأعـلَمُ مـا في اليـوم والأمس قـبْلَهُ

ولكنني عن علم مـا في غـدِ عَمِ[٢]

رأيتُ المنـايا خَبْطَ عَشْـوَاءَ من تُصِبْ

تمتـه ومن تُخْـطِىء يعمَّـر فيهـرم[٣]

ومن لمـا يُصَانِـعْ في أمـورٍ كثيـرةٍ

يُضَـرَّسْ بـأنيـاب ويُـوطَـأْ بمَنْسِمِ[٤]

ومن يَجْعل المعروف من دون عـرضهِ

يَفِـرْهُ ومن لا يَتَّقِ الـشتـم يشـتم[٥]

ومن يـكُ ذا فضـل فيبخـل بفضله

على قـومـهِ يُسْتَغْن عنــه ويـذمم[٦]

---

(١) ـ سئمت الشيء سآمة: مللته وتضجرت منه. التكاليف: المشاق. لا أبالك: كلمة جافية يراد بها التنبيه.

(٢) ـ وهو هنا يعلم كل شيء عن الماضي والحاضر من الزمان ولكنه لا يعلم شيئاً عما يخبئه له المستقبل.

(٣) ـ الخبط الضرب باليد. العشواء تأنيث الأعشى الذي لا يبصر ليلاً. وهو هنا كناية عن الناقة.

(٤) ـ المصانعة: المداراة. أي أنه إذا لم يدار الناس فلا بد من أنهم سيقهرونه حتماً.

(٥) ـ يريد أن من كان معروفه ذبا عن عرضه صانه من الشتم ومن بخـل دون ذلك سيشتم.

(٦) ـ ومن كان ذا فضل ومال وبخل بهما عن قومه فيستغني عنه قومه ويذمونه.

ومن هـاب أسباب المنـايا يَنَلْنَـهُ
وإن يـرق أسبـاب السـماءِ بِسُلَّم[1]
ومن يجْعَـل المعْـروفَ في غَـيْرِ أهْلِهِ
يكُنْ حَمْـدُهُ ذمّاً عَلَيْـه ويَنْـدَم[2]
ومن يَعْصِ أطْرَافَ الزُّجاج فإنّـهُ
يُطيعُ العوالي رُكّبَت كلَّ لهذم[3]
وَمَنْ لَمْ يَـذد عَنْ حَـوْضِـهِ بِسِلاحِهِ
يُهَـدَّمْ ومن لا يَـظْلِمِ الناس يُظْلَم[4]
ومن يغتـرِبْ يَحْسِبْ عَـدُوّاً صديقـهُ
ومن لا يكـرم نَفْسَـهُ لا يُكَـرَّم[5]
ومهـما يكنْ عنـد امـرِىء من خَليقةٍ
وإن خـالَهـا تُخْفى على الناس تُعْلَم[6]

(١) ـ رقـي : صعد ومن خاف المنية لا بد من أنها ستنال منه ولن ينفعه خوفه.

(٢) ـ إن من يحسن إلى من لم يكن أهلاً للإحسان سيرتد إليه إحسانه شتماً عليه وذما له فيندم بعد ذلك على عمله.

(٣) ـ الزجاج: جمع زج وهو حديدة في أسفل الرمح. اللهذم شلفة الرمح الطويلة عالية الرمح ضد سافلته والجمع عـوالي. وعصيان الـزجاج: الامتنـاع عن الصلح، وهو بذلك لجأ إلى الحرب والامتثال لأمر الرماح.

(٤) ـ الذود: الدفاع. أي من لا يدافع عن نفسه ويبدأ بظلم الناس يظلمه الناس.

(٥) ـ من سافر واغترب حسب الأعداء أصدقاء لأنه لم يجربهم فتوقفه التجارب على ما في ضمان من النويا. ومن لم يكرم نفسه بالترفع عن الدنايا لا يمكن أن يكرمه الناس.

(٦) ـ الخليقة هنا النقيصة. أي ومها يكن عند الناس من نقص فإنه لا بد أن يُعْلَم ومهما بلغت الحيطة من إخفائه.

وكائنْ تَرَى من صامِتٍ لك مُعْجِب
زيادَتُهُ أو نقصه في التكلُّمِ [1]
لِسَانُ الفَتَى نصْفٌ ونصْفٌ فؤادُه
فَلَمْ يَبْقَ إلّا صورةُ اللحم والدم [2]
وإن سفاه الشَّيْخ لا حِلْمَ بعده
وإن الفَتَى بعد السَّفاهَة يَحْلُمِ [3]
سَأَلْنَا فأعْطيْتُمْ وَعُدْنَا فَعُدْتُمُ
وَمَنْ أكْثَرَ التَّسْآلَ يوماً سيُحرَمِ [4]

ألا ترى أنه قد سئم تكاليف هذه الحياة؟ فكيف لا يسأم رجل مثله وقد بلغ الثمانين من العمر؟ وكيف لا يسأم كذلك من عاش أجواء الجاهلية الروتينية الرتيبة التي لا شيء فيها يبعث في نفس الإنسان الأمل على حب البقاء وممارسة الحياة بشكلها الطبيعي الذي ينبغي أن يدفع بالإنسان إلى الاستمرار عطاءً وإبداعاً؟ فلماذا يا ترى لا يطمح ولا يطمع زهير في هذه الحياة وهو لا يعرف منها أكثر مما مرّ ويمر، وأما المستقبل فقاتم أسود ومصير الإنسان فيه

(١) ـ الكائن هنا الرجل. الصمت: السكوت. فقد يعجبك رجل لصمته ولكن كلامه حقيقة هو الذي يحقق ذلك الإعجاب فعلاً أو يرفضه.
(٢) ـ كأن نقول: المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إحساساً وتعبيراً.
(٣) ـ يقول ان الشيخ إذا شب سفيهاً فلا يمكن أن يرجع عن سفهه. أما الفتى فهو على غير ذلك. لأن من شب على شيء شاب عليه، وواجب التقويم للأغضان.
(٤) ـ التسآل: كثرة الطلب. يقول سألناكم مجدتم ولكن كثرة الطلب تؤدي حتماً إلى الحرمان.

مجهول الصورة والحدود؟ وأما المنية عنده فهي كناقة عشواء تدب ليلاً ولا ينجو منها إلا من تخطئه فيمتد به العمر حتى يصل إلى أرذله، فلذلك على الإنسان أن يتمرس بأمور هذه الحياة ويسبر أغوارها حتى لا تدوسه بأخفافها العريضة وتعركه وتطحنه بأضراسها القوية. فمن واجب الإنسان بهذا أن لا يجعل عِرْضَه عُرْضةً لذم الناس وشتائمهم بما يقوم به من عمل الخير لأن الغاية من المعروف حماية العرض لا تعريضه. وأما من يمتلك الفضل والغنى فعليه أن لا يكون بخيلاً بهذا الفضل عن الناس وخصوصاً عن أبناء قومه المحتاجين حتى لا يتخلى عنه قومه ويصبح مذموماً سيء السمعة بين الناس لتخليه عن شركائه في الفضل لأن الإنسان لا تكبر قيمته وتعلو سمعته إلا بتجمع أفراد عشيرته حوله. وأما إذا كان هذا المعروف في غير مستحقيه الذين لا يقدرونه حق قدره فإنه لا يجرُّ على صاحبه إلا الذم منهم والندم على ما أقدم عليه. وأما الذي يعصي الدعوة للسلم أو الصلح فإن الحرب كفيلة بإرغامه على الخضوع للرماح فهي على قول المتنبي: «أذهب للغيظ وأشفى لغل صدر الحقود». فعلى الإنسان أن يقف في هذه الحياة مدافعاً عن نفسه وبسلاحه وإلا سيكون مصيره إلى الهزيمة والاندحار ولا تكتب له الحياة إلا إذا بدر إلى ظلم الناس وإنزال الشر فيهم، فيعيش مكرماً بينهم لأن حياضه وحريمه بقيت مصانة لا غبار عليها. وأما الإنسان الذي يحاول إخفاء نقائصه على الناس فهو مخطىء لأن الأيام كفيلة بكشف كل العيوب «الدرب الطويلة

كشافة العيوب». فالإنسان عند زهير نصفان على حد تعبير المثل المأثور«المرء بأصغريه: قلبه ولسانه» فالقلب عنده مركز الإحساس وأما اللسان فهو أداة ذلك الإحسان وما تبقى من الجسم البشري ما هو إلا أوعية لحفظ الجسم وأوردة الدماء. فاللسان له عنده دور مهم «إن صنته صانك» إذ «من لا يكرم نفسه لا يكرم» بدءاً باللسان وانتهاء بعظيم الأعمال.

فزهير في هذا المقطع الحكمي رجل تضلع بأمور الحياة فأكسبته دراية عظيمة بها جعلته يحدد لنا، وانطلاقاً من تجربته الحسية البدوية الصادقة، أموراً عديدة تضع الإنسان منا وجهاً لوجه أمام معضلات الحياة الكبرى، بصدق وأمانة وواقعية، رغم بساطة بعض تلك الأمور حيث يحض على المصانعة والمعروف والفضل والوفاء والشجاعة والامتثال إلى الملأ... وكيف لا تحمل حكمه بعض البساطة وهو القائل «ومن لا يظلم الناس يظلم»وهو لا يلام في ذلك لأن طبيعة حياة البدوي كانت تفرض عليه مثل هذا القول.

وإذا أعدنا النظر في المعلقة عموماً فإننا نرى زهيراً شاعر قومه، فهو يتحدث عنهم وإليهم ويريد أن يصرفهم عما يكرهون ويكره هم ويدعوهم إلى التخلص من الحزازات والأحقاد التي من شأنها أن تثير الحروب وتهرق الدماء، وهو من أجل ذلك لا يفرغ لمدح هرم والحارث إلا لأنهما قد ثبتا الصلح وعصما الناس من استمرار الفتنة.

النزعة الفنية في شعر زهير.

إذا صح ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «زهير شاعر الشعراء لأنه لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح الرجل إلا بما فيه» فإنما يدل هذا القول على دراية عمر بأمور الكلام ودقة استعماله لأنه يستطيع أن يميز فعلاً بين عملية التداخل اللفظي التي من شأنها أن تربك الأفهام وتسيء إلى السياق اللغوي في آن معاً، لأن سلامة اللفظ في دقة تراكيبه، وجماله فيما تحمله تلك التراكيب من الدلالات المعبرة والصور الموحية . ولقد أوضحنا في أكثر من مجال عندما عرضنا لأغراض زهير الشعرية، أن صياغته في شعره ، على جانب عظيم من الصفاء والوضوح لخلوها من العديد من الاستعمالات التي من شأنها أن تسيء إلى التعبير الشعري حيث يهتز معها رونق الصور التي يحملها هذا الشعر ، فتسقط بذلك قيمته الأدبية ويصبح بذلك مجرد كلام لا رواء فيه ولا جمال.

وزهير في شعره كثير التأنق حتى تحس وأنت تقرأ له أنه قادر على امتلاك زمام اللغة بحيث لا يستعمل الكلمة من السياق اللغوي إلا في مواضعها فتشعر عندها بمتعة غريبة تغرسها في نفسك

ايقاعاته المتساوقة التي تدل دلالة قاطعة على درايته في عملية إظهار جمال الصورة برقة ورشاقة، ليس فيها أي نشاز يذكر من شأنه أن يضعف من تراكيبه وقوافيه وصوره الحسية الجميلة.

فانظر إليه كيف تأتي قوافيه وهي تنسكب انسكاباً في مواضعها كما في مثل قوله:

وأعـلمُ مـا في اليـوم والأمس قـبله
ولكنني عن علم مـا في غـدٍ عمي

فلاحظ كلمة عمٍ مثلاً فهل يمكن إبدالها بكلمة غيرها؟ ثم انظر إليه في البيت التالي:

هم يضربون حَبِيكَ البَيْض إذْ لحِقُوا
لا ينكصون إذا ما استُلْحِمُوا وَحَمُوا

فانظر إليه كيف استخدم كلمة «حموا» التي فرضت نفسها فرضاً في آخر البيت لتتجانس مع «استلحموا» وهذا ما عرفه علماء البديع بعلم الجناس. وأما في البيت التالي كذلك:

كـأن عيني وقـد سـال السليـلُ بهم
وجـيـرةٌ مـا هُـمُ لـو أنـهـم أمـم

حيث جانس بين كلمتي «سال» و «السليل» وتعلق بحرف الميم في ألفاظ الشطر الثاني، كل ذلك ليساهم مساهمة فعالة في عملية الجرس والإيقاع التي تنسجم معها النفوس إضافة إلى ارتياحها إلى المعنى. وأما البيت التالي:

وقد قلتما إن نُدْرِكِ السلم واسعاً
بمال ومعروف من القول نَسْلَمِ

فقد جانس بين كلمة «السلم» في الشطر الأول و «نسلم» في الشطر الثاني. وقوله كذلك:

تقيٌّ نقي لم يُكَثِّر غنيمةً
بِنَهْكَةِ ذي القربي ولا بِحَقَلَّدِ

لمجانسته بين كلمة «تقي» و «نقيّ»

فاستعمال الجناس في شعر زهير لم يقصد إليه صاحبه كنتيجة لتكلف وتصنع وإجهاد لأنه كان كما ترى عفو الخاطر وذلك يعود إلى إحاطته التامة بالمعجم العربي الذي تنثال عليه ألفاظه انثيالاً فيختار زهير بحنكته وتضلعه ما يجده مناسباً لتجويد تراكيبه اللفظية في إظهار صوره الشعرية على الشكل الذي ترى. وأما في هذا البيت:

فأصبَحْنَ لا يَعْرِفْنَ إلاّ خليقتي
وإلا سَوادَ الرأس والشيبُ شامِلُه

فانظر إليه كيف التفت إلى شيب رأسه بعد أن كان مجللاً بالسواد الذي كان الأحبة يعرفنه به وهو خير ما كان يُزينُهُ.

وأما عن مراعاة النظير فقد شبه ناقته بالبقرة الوحشية في سرعتها فاستمر بوصف تلك البقرة ليراعي نظيره، حيث يقول:

كخنســاء سعفاء المــلاطم حــرة
مـــســـافــرة مــزؤودةٍ أمَّ فــرقــدِ
غــدت بســلاحٍ مثلُهُ يتَّقى بــه
ويؤمنُ جــأش الخـائف المتَــوَحِّـد

وأما استخدامه الطباق حيث تتعارض اللفظتان في معنييهما قوله:

جَعَلْنَ القَنَـــانَ عن يمـين وحـــزْنَــهُ
وكمْ بــالقنـان من مُحِــلٍّ ومُحْــرِمِ

إذ طابق بين اللفظتين «محل» و «محرم».

أو قوله:

يميـنــا لَـنِعْـمَ السَّـيِّــدانِ وُجِــدْتُمَــا
على كــل حالٍ من سَحِيـل و مبْرَمِ

لمطابقته بين «سحيل» لاعتباره ضعيفاً وبين «مبرم» لاعتباره قوياً.

أو قوله كذلك:

وقــد كنتُ من سلمى سنينـاً ثمـانيـا
على صبــر أمر مـا يَمُـرُّ ومـا يحْلُو

حيث طابق بين المرارة والحلاوة في الفعلين «يمر» و«يحلو».

واستمع إليه كذلك في قوله:

لَيْثٌ بِعِثَّرَ يصطاد الرجال إذا
ما كذَّب الليثُ عن أقرانِهِ صدقا

لمطابقته بين «كذب» و «صدق».

وزهير بهذه الاستعمالات البديعية، كما لاحظت، لم يكن يدرك أنها ستكون أساساً من المحسنات اللفظية التي تزين النصوص وتزيدها رونقاً وبهجة وإنما كانت تصدر منه هذه الألوان عفوياً وبدون تصنع يذكر أو تكلف مقصود كما أشرنا إلى ذلك في أكثر من موضع. ولكن الغرض الأساسي عنده هو الاهتمام بالصورة التي كان يتقصى كل أجزائها معتمداً في ذلك طريق التشابيه الحسية التي تساعده على إبراز صورة بشكلها القشيب وألوانها الزاهية حيث نحس معه ونحن نتأمل صوره بأننا «أمام عالم خيالي حالم، خاصة حين تلقانا تشابيهه واستعاراته وما يملؤها به من أشباح وأرواح، حيث نستشف معه كثيراً من الأشياء وعلاقاتها بعضها ببعض كما نستشف الجمال في داخلها ونشعر بغير قليل من المتاع».

ولا أشك لحظة في أنك قد تأملت بإمعان ما عرضناه من شعر زهير أثناء استعراضنا لأغراضه حيث عرضنا، مع ذلك، للكثير من الاستعارات والتشابيه التي تساعد على تجسيد تلك الصور الزهيرية الرائعة.

وعلى سبيل المثال لا التكرار والحصر، نقرأ هذه الأبيات من شعر زهير فماذا نرى:

تـنـازعهـا المهـا شبـهـاً ودرّ النـ

ـحُـورِ وشَـاكَهَتْ فيهـا الـظبـاءُ

فـأمَّـا مـا فـويـق العـنق منهـا

فـمـن أدمـاء مـرتـعـهـا الخـلاء

وأمـا المـقـلتـان فـمـن مـهـاة

ولـلدر الـمـلاحـةُ والـصـفـاء

ألا ترى أنه لا يشبه حبيبته بالمها وبالدر والظباء وينصرف إلى ايراد غيرها من الصور بل يعمد إلى التفصيل في هذا التشبيه، وبشكل غير ممل ولا متكلف، حيث يقول بأن صاحبته «تشبه الظباء في جيدها الجميل الطويل وبقر الوحش في سواد عينيها الفاتنتين والدر في ملاحته وصفائه ولمعانه وبهائه»

هذا في التشبيه وأما في الاستعارة فانظر إليه من خلال هذا البيت:

لـدى أسـد شـاكي الـسـلاح مقـذَّفٍ

لَـهُ لَـبِـدٌ أظـفـارُه لـم تُـقَـلَّم

فانظر إليه كيف شبه ممدوحه بالأسد فحذف المشبه ودل عليه بشيء من لوازمه وهو استعمال السلاح على سبيل الاستعارة التصريحية لتصريحه بالمشبه به. وأما قوله:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله

وعُـرِّي أفـراس الصِّبـا ورواحـلُه

فقد استعار فيه للصبا أفراساً ورواحل قد تعرت لأن عهود الصبابة قد ولت إلى حيث لا رجعة. وهذه الصورة كما نرى «لا تقع إلا في ذهن من يكثر من التخيل والإغراق في التصور، ذهن يتعمق في الأشياء والمعاني حتى يتخيلها احياء حقيقية».

وأما في الكناية فانظر إليه يقوله:

أليس بفياض يداه غمامة
ثمال اليتامى في السنين مُحَمَّد

ألا ترى أن في تشبيهه يدي الممدوح بالغمامة كناية عن الكرم الذي يجلب الحمد لصانعيه؟

أو قوله:

وأبيض فياضٌ يداه غمامةٌ
على مُعْتَفِيه ما تُغِبُّ فواضله

ونحن ما أوردنا من أنواع الاستعارات والتشابيه والكنايات وألوان البديع فإننا لن نستطيع أن نوفي زهيراً حقه من البحث للتدليل على مقدرته الفنية في إظهار صوره الخالدة وكأننا به «كان الثمرة النهائية للجهود الفنية التي أودعها الجاهليون أشعارهم، فهو من جهة قد صقل أسلوبه إلى أبعد غاية من الصقل، ومن جهة ثانية عني بموسيقاه وألحانه عناية واسعة بحيث لا يبدو فيها أي شذوذ، ومن جهة ثالثة استتم فن التصوير بفرعيه من التشبيه والاستعارة» والمجاز.

وإذا كنا نرى في زهير شاعراً من شعراء الجمال الفني الخالص فإننا نرى فيه شاعراً حكيماً حدد معاني الخير والصلاح ، وداعية من دعاة السلم والحرية، ومتأنقاً من متأنقي الشعر حتى بدا شعره وكأنه نسيج وحده من حيث سلامة اللفظة والعبارة وصفاء الصورة واكتمالها حتى قيل فيه «انه صاحب الحوليات» لتشدده في الاعتناء بشعره.

أما ما يقوله البعض من أن قصائده يدخلها شيء من الارتباك في ترتيب أبياتها فهذا أمر لا يضير زهيراً في شيء مما عيب عليه لكمال صوره على تعددها وحتى في القصيدة الواحدة.

وأما ما يتعلق بالوحدة الفنية التي تجمع وشائج القصيدة عنده، فهذا أمر قد بدا معه زهير واضحاً، فإذا كانت قصائده متعددة الأغراض، وكل غرض عنده ما كان إلا ليثبت صاحبه بأنه فنان حاذق في تحديد مواطن الجمال فيه، فإن ذلك لا يعني أن قصيدة زهير لا تخلو من روابط موضوعية تشد أواصرها، إذ أن استقلالية البيت أو المقطع في القصيدة الواحدة لم تكن عبثاً.

«أقوم آل حصن أم نساء»

نزل رجل من بني عبد الله بن غطفان ببني غليب ، وهم آل بيت من كلب، من بني عُلَيْم، فأكرموه واحسنوا جواره. وكان هذا الرجل مولعاً بالقمار فنهوه عنه فأبى إلا المقامرة، فقمر مرة فردوا عليه خسارته، ثم قمر أخرى فردوا عليه، فقمر الثالثة فلم يردوا عليه؛ ويقال: إنه رهن زوجته وابنه، فكان الفوز عليه فترحل عنهم وشكا ما صنعوا به إلى زهير، والعرب حينئذٍ يتقون الشعراء، فهجاهم زهير، ثم لما علم حقيقة الأمر ندم وقال: ما خرجت في ليلة ظلماء إلا خفت أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم وهذا بعض ما قاله في هجائهم:

عــفــا مــن آل فــاطــمــة الجِــوَاءُ
فَــيُمْــنٌ فــالــقَــوَادِمُ فــالحِــســاءُ[1]

فَــذُو هَــاشٍ فَمَيثُ عُــرَيْتِنــاتٍ
عَفَتْهــا الــرِّيــحُ بَعْــدَكَ والســماءُ[2]

(١) ـ عفا : درس وامحى. الجواء ويمن والقوادم والحساء: مواضع في بلاد غطفان.

(٢) ـ ذوهاش: موضع. الميث: جمع ميثاء: الرولة السهلة. عريتنات: موضع.

فَـذِرْوَةُ فـالجـنــاب كـان خُنْسَ
النِّعـاجُ الـطاويـات بهـا المـلاء[1]
فـلما أن تحـمَّـلَ آلُ لـيْـلى
جَـرَتْ بيـني وبـينهُـمُ ظِـبـاء[2]
تـنـازعـهـا المـهـا شـبـهـا ودُرُّ
النحـور وشـاكهت فيها الـظبـاء[3]
فـأمَّـا مـا فُـوَيْـقَ العِـقْـدِ منهـا
فَمِنْ أدمـاء مـرتـعهـا الخَـلاَء[4]
وأمـا المُـقْـلَتَـانِ فـمِـنْ مَـهَـاةٍ
ولـلدُّرِ المَـلاَحَـةُ والـصـفـاء
كـأنَّ الرَّحَـلَ مِنْهَا فَـوْقَ صَعْـلٍ
مـن الـظُّلمـان جُؤْجُـؤُهُ هَـوَاءُ[5]

---

(١) ـ ذروة والجناب: موضعان. الخنس جمع الخنساء: قصيرة الأنف. النعاج: جمع نعجة وهي انثى البقر. الطاويات الضامرات. الملاء: أردية الحرير البيضاء.

(٢) ـ أراد أن الحبيبة بعدت عنه حتى أصبح ما بينه وبينها ملعباً للظباء فتشاءم لذلك.

(٣) ـ المها: بقر الوحش. شاكهت: شابهت.

(٤) ـ فويق العقد: أراد به طول العنق. الأدماء: الظبية البيضاء. الخلاء: الموضع الخالي.

(٥) ـ الرحل: الناقة. الصعل: الظليم وهو ذكر النعامة. الجؤجؤ: الصدر. هواء: خال لا قلب فيه.

أصَكُّ مُصَلَّمِ الأذنين أجنى
لَهُ بالسِّيِّ تَنُّوم وآءُ[1]

أذلِكَ أمْ شَتيمُ الوَجْهِ جأْبٌ
عليه أمْ عَقِيقَتِهِ عِفَاءُ[2]

تَرَبَّعَ صَارَةً حتى إذا ما
فَنِيَ الدُّحْلاَنُ عنه والأضَاءُ[3]

تَرَفَّعَ للقنان وَكُلَّ فجٍّ
طباه الرِّعْيُ منه والخَلاَءُ[4]

فَأوْرَدَهَا حِيَاضَ صُنَيْبِعاتٍ
فَألْفَاهُنَّ لَيْسَ بهنَّ مَاءُ[5]

فَشَجَّ بها الأمَاعِزَ فهي تَهْوِي
هَوِيَّ الدَّلْوِ أسْلَمَها الرِّشَاء[6]

---

(١) ـ الأصك: المتقارب العرقوبين. المصلّم: المقطوع. السِّيّ: موضع. التنوم: نوع من الشجر. الآء: ثمر السرح.

(٢) ـ الشتيم: الكريه. الجأب: الغليظ. العقيقة: شعر الحمار الذي ولد بـه. العفاء: الشعر والوبر.

(٣) ـ تربّع: أقام الربيع. صارة: موضع. فنى من فني: انعدم. الدحلان جمع دحل: البئر. الأضاء: الغدران.

(٤) ـ ترفع: اعتلى. القنان جبل لبني أسد. الفج: الطريق بين جبلين. طباه: دعاه.

(٥) أوردها أي ذهب بالحمار وأتانه إلى الماء. الحياض: منافع الماء صنيبعات: اسم أرض.

(٦) ـ شج الأرض: ركبها وعلاها. الأماعز: الأرض الكثيرة الحصى. تهوي: تسرع. الرشاء: الحبْل.

وقد أغْدُو على ثِبَةٍ كِرَامٍ
نَشَاوَى واجدين لما نشَاءُ[1]

لَهُمْ رَاحٌ وراووقٌ ومِسْكٌ
تُعَلُّ به جُلُودُهُمُ وماءُ[2]

يَجُرُّون البُرُودَ وَقَدْ تَمَشَّتْ
حُمَيَّا الكَأسِ فيهم والغناء[3]

تَمَشَّى بَيْنَ قَتْلَى قد أُصِيبَتْ
نُفُوسُهُمُ ولم تُهْرَقْ دِمَاءُ[4]

وما أدْرِي وَسَوْفَ إخالُ أدْرِي
أقومٌ آل حصنٍ أمْ نِسَاءُ[5]

فإن قالوا: النِساءُ مخبآتٌ
فَحُقٌّ لكل محصنةٍ هِدَاءُ[6]

---

(١) ـ الثبة: الجماعة من الناس. نشاوى: سكارى.

(٢) ـ الراح: الخمرة. الراووق المصفاة وهي خرقة تصفى بها الخمر. تُعل به: تطيب به.

(٣) ـ البرود واحدتها بردة وهي الثوب الموشى. حميا الكأس: صدمة الخمر في الرأس.

(٤) ـ تمشي: أي الخمر تمشي. وأراد بالقتلى: السكارى. تهرق: تسفك.

(٥) ـ القوم أراد بهم الرجال دون النساء. سوف إخال أدري: سوف أبحث عن الحقيقة.

(٦) ـ المحصنة: ذات الزوج. الهداء: الزواج.

وإمَّا أنْ يقُولَ بَنُو مَصَادٍ:
إليكم! إننا قومٌ براءُ[1]

وإما أن يقولوا: قد وفينا
بذِمَّتِنا فعادتُنا الوفاءُ

واما أن يقولوا: قد أبيْنَا
فشَرُّ مَوَاطِنِ الحِسَبِ الإبَاءُ

وإن الحقَّ مقطعُهُ ثلاثٌ
يمينٌ أو نِفَار أو جِلاءُ[2]

فَذلِكُمْ مقاطع كلِّ حَقٍّ
ثلاثٌ كُلُهُنَّ لَكُمْ شِفَاء[3]

جِوارٌ شاهِدٌ عَدْلٌ عَلَيْكُم
وَسِيَانَ الكفالةُ والتَّلاءُ[4]

بأيِّ الجيرتين أجرتموه
فلم يَصْلُحْ لكم إلاّ الأداء[5]

وَجارٌ سارَ مُعْتَمِداً عَلَيْكُم
أجاءته المخافة والرجاء

---

(١) ـ بنو مصاد: من بني حصن.

(٢) ـ ثلاث: ثلاث خصال. اليمين: الحَلْف. الجلاء: وضوح الأمر.

(٣) ـ قوله: شفاء أي جعل في الحق شفاء من الشك والالتباس.

(٤) ـ التلاء: الحوالة.

(٥) ـ بأي الجيرتين: أي الكفالة والتلاء.

فَجَاوَرَ مُكْرَماً حتَّى إذا ما
أتاه الصيف وانقطع الشتاء
ضَمِنْتُمْ مَالَهُ وَغدا جميعاً
عليكُمْ نَقْصُهُ ولَهُ النَّمَاءُ[1]
وَلَوْلاَ أَنْ يَنَالَ أَبا طَرِيفٍ
مِنَ الكَلِماتِ آنيةٌ مِلاءُ[2]
فلم أر مَعْشَراً أَسَرُوا هَدِيًّا
ولم أرَ جَارَ بيت يستباء[3]
وجار البيت والرجل المنادِي
أمام الحَيِّ عَقْدُهما سَوَاءُ[4]
أبى الشُّهَدَاءُ عِنْدَكَ من مَعَدٍّ
فَلَيْسَ لما تَدِبُّ لَهُ خَفَاء[5]
وإني لو لَقِيتُكَ فاجتمعنا
لَكَانَ لكلِّ مُنْدِيَةٍ لِقَاءُ[6]

---

(١) ـ النماء: الزيادة من الإنتاج.

(٢) ـ أبو طريف: الرجل المأسور. المليك: أراد به الأمير لأنه يملك الأسير. اللحاء: الملاحاة واللوم.

(٣) ـ الهدي: الزوج ذو الحرمة وهو المستجير بالقوم. يستباء: تؤخذ زوجته.

(٤) ـ الرجل المنادي: المجالس صاحب البيت والمجير في آن.

(٥) ـ أبى: امتنع. الشهداء: الحاضرون الذين شهدوا بالحق. تدب له: تمشي إليه. أراد أن الأمر أوضح من أن يخفى لصحة دلائله وكثرتها.

(٦) ـ المندية: المخجلة التي تجعل جبين المرء يتصبب عرقاً. لقاء: ما نجتمع من أجله.

فمهلاً، آلَ عبد الله، عَدُّوا
مَخازِيَ لا يدب لها الضَّرَاءُ[1]
أرُونا سُنَّة لا عَيْبَ فيها
يُسَوِّي بَيْنَنَا فيها السَّوَاءُ[2]
فإن تَدعُوا السواء فليس بيني
وبينكُمُ بني حِصْنٍ بَقَاء[3]
ويبقى بيننا قذع وتُلْفَوْا
إذاً قوماً بأنفسكم أساؤوا[4]
وتُوقَدْ نارُكُمْ شرراً ويُرْفَعْ
لكُمْ في كلِّ مَجْمعَةٍ لِواءُ[5]

---

(١) ـ بنو عبد الله: حي من كلب. عَدُّوا مخازي: أي اصرفوا عن أنفسكم هذه المقابح التي تنالكم بغدركم.
(٢) ـ السواء: العدل. أي أرونا سنة، طريقة، لا يعاب عليكم تُسَوِي بيننا بالحق.
(٣) ـ تَدْعُوا السواء: تتركوا العدل في الحق، فلا يُبقي بعضنا على بعض شيئاً.
(٤) ـ القذع: القبيح من القول.
(٥) ـ توقد ناركم شرراً: يظهر أمركم في الناس وهنا النار هي نار الشهرة

وقالت أم كعب لا تزرني

قال هذه الأبيات لأم ولده كعب وبجير بعد أن لاقت منه صدوداً لخشونة تصرفها معه:

وقـالَـتْ أمُّ كَـعْـبٍ لا تَـزُرْني
فَـلاَ واللهِ مـا لَـكَ مِـنْ مَـزَارِ

رأيتُـكَ عبـتني وصـددت عـني
وَكَيْفَ عَلَيْكَ صَبْري واصْطِبَاري

فـلم أُفْسِـدْ بـنيكَ ولمِ أُقَـرِّبْ
إليـكَ من المُـلِمَّـاتِ الكِـبَـارِ

أقـيمـي أمَّ كَـعْـبٍ واطْـمَئِـنّي
فـإنّـكِ مـا أقَمْتِ بـخيـر دَار

ولكن أمُّ أوفى لا تبالي.

قال ابن الأعرابي: أم أوفى التي ذكرها زهير في شعره كانت امرأته فولدت منه أولاداً ماتوا، ثم تزوج بعد ذلك امرأة أخرى وهي أم ابنيه كعب وبجير فغارت من ذلك وآذته فطلقها ثم ندم فقال فيها:

لَعَمْرُكِ والخُطُوبُ مُغَيِّرَاتٌ
وفي طولِ المعاشرة التقالي[1]
لقد بالَيْتُ مَظْعَنَ أمِّ أوفى
ولكنْ أمُّ أوْفى لا تُبَالي[2]
فأما إذ نأيْتِ فلا تَقُولي
لِذي صِهْرٍ: أُذِلتُ ولم تُذَالِي[3]
أَصَبْتُ بَنِيَّ منك ونِلْتِ مني
من اللذات والحُلَلِ الغوالي

(١) ـ النقالي: التباغض.

(٢) ـ المظعن: السفر، الفراق. باليت: اهممت.

(٣) ـ اذلت: اهنت.

«أردد يساراً»

قال ابن الأعرابي: كان الحارث بن ورقاء الصيداوي من بني أسد، قد أغار على بني عبد الله بن غطفان، فغنم بجملة ما غنم إبل زهير وراعيه يساراً، فقال فيه مهدداً:

بَانَ الخليطُ ولم يَأْوُوا لِمَنْ تَرَكُوا
وزودوك اشتياقاً أَيَّةَ سَلَكُوا[1]

ردَّ القِيَانُ جمال الحيِّ فاحْتَمَلُوا
إلى الظهيرةِ أمرٌ بينَهُم لَبِكُ[2]

ما إنْ يكادُ يُخَلِّيهِمْ لِوَجْهَتِهِم
تخالُجُ الأمْرَ إن الأمر مُشْتَرَكُ[3]

يَغْشَى الحُدَاةُ بهم وعْثَ الكَثِيبِ كَمَا
يُغْشِي السَّفائِنَ مَوْجَ اللُّجَةِ العَرَكُ[4]

---

(١) ـ الخليط: المخالطون في العيش. لم يأووا: لم يرحموا. أي ذهبوا عنك بمن تحب ولم يرحموك.

(٢) ـ القيان الإماء. إلى الظهيرة: أي طالت رحلتهم إلى الظهيرة. اللبك: المرتبك.

(٣) ـ تخالج الأمر: تخالف.

(٤) ـ الوعث: اللين. العرك: النوتي قائد السفينة.

هـل تُبْلِغَنِّي أدْنى دارِهم قُلُصٌ
يُزْجِي أوائِلَها التَّبْغِيلُ والرَّتَكُ[1]
مثل النعام إذا هَيَّجْتَها ارْتَفَعَتْ
على لَوَاحِبَ بِيضٍ بَيْنَها الشَّرَكُ[2]
وقد أروحُ أمامَ الحَيِّ مُقْتَنِصاً
قُمْراً مَرَاتِعُها القِيعانُ والنَّبَكُ[3]
وصاحبي وَرْدَةٌ نَهْدٌ مراكِلُها
جَرْداءُ لا فَحَجٌ فيها ولا صَكَكُ[4]
كأنَّها من قَطَا الأجْبابِ حَلأها
وِرْدٌ وأفردَ عنها أُخْتَها الشَّرَكُ[5]
أهْوَى لها أسْفَعُ الخَدَّيْنِ مُطَّرِقٌ
رِيشَ القَوَادِمِ لم يُنْصَبْ له الشَّبَكُ[6]

---

(١) ـ القُلُص: مفرد قلوص: الفتية من الإبل. يزجي: يسوق. التبغيل: سير البغال. الرتك: مقاربة الخطو.

(٢) ـ مثل النعام: أي ضامرة. هيجتها: حثثتها. اللواحب: مفرد لاحب: الطريق الواضحة.

(٣) ـ القمر: الواحد: أقمر وقمراء: حُمُر الوحش. القيعان: بطون الأرض. النَّبَكُ: الرابية.

(٤) ـ وردة: أي فرس وردية اللون. النهد: الغليظ. المراكل: القوائم. الفحج: تباعد بين القوائم. الصكك: اضطراب الركبتين.

(٥) ـ الأجباب: الواحد جب: البئر. حلأها: طردها عن الماء. الورد: القوم يردون الماء. الشرك: الفخ.

(٦) ـ أهوى: انحدر. اسفع الخدين: كناية عن الصقر. والسفعة: سواد يضرب إلى الحمرة. لم ينصب له الشبك: لم يذلل ولم يؤخذ ويطوع.

لا شيْءَ أسرَعُ منها وهي طيبةً
نَفْسَا بما سَوْفَ يُنْجِيها وتَتْرِكُ[١]
هلاّ سَأَلْتَ بني الصيداءِ كلَّهُمُ
بأيِّ حَبْلِ جِوارٍ كنت أمْتَسِكُ[٢]
فَلَنْ يَقُولُوا بِحَبْلٍ وَاهِنٍ خَلَقٍ
لَوْ كَانَ قَوْمُك في أسْبَابِهِ هَلَكُوا[٣]
يا حارِ لا أُرْمَيَنَّ منكم بِداهِيَةٍ
لم يَلْقَها سُوقةٌ قبلي ولا مَلِكُ[٤]
أرْدِدْ يساراً ولا تعْنَفْ عليه ولا
تَمْعَكْ بِعَرْضِكَ إنَّ الغادِرَ المَعِكُ[٥]
ولا تَكُونَنْ كأقوام علمتُهُمُ
يلْوُون ما عِنْدَهم حتى إذا نَهِكُوا[٦]
تَعَلَّمَنْ! ها لَعَمْرُ اللهِ، ذا قَسَماً
فاقْدِرْ بِذَرْعِكَ وَانْظُرْ أَيْنَ تَنْسَلِكُ[٧]

---

(١) ـ تترك: أي لا تخرج أقصى سرعتها لثقتها بنفسها في أن الصقر لا يدركها.
(٢) ـ بنو الصيداء: قوم من بني أسد. الحبل: العهد والميثاق.
(٣) ـ الواهن: الضعيف. الخلق: البالي: أسبابه: حباله.
(٤) ـ يا حار: ترخيم يا حارث وهو الحارث بن ورقاء.
(٥) ـ تمعك: تماطل. المعك: المماطل.
(٦) ـ يلوون: يماطلون ويخلفون بوعودهم. نُهكوا: شُتموا.
(٧) ـ تعلَّمنْ: إعلم. ها: للتنبيه. أقدر بذرعك: أي أقدر بخطوك. أين تنسلك: اين تؤخذ.

لـيـأتـيـنـك مـنـي مَـنْـطِقٌ قَـذِعٌ
بـاقٍ كمـا دَنَّسَ القُبْـطِيَّةَ الــودك[1]

(1) ـ القذع: الشتم القبيح. القبطية: الثياب البيضاء. الودك: الدسم من اللحم والشحم.

همُ خير حي من معد.

يمدح زهير في هذه القصيدة سنان بن أبي حارثة والدهرم حيث نقتطف منها هذهَ الأبيات:

صحا القلب عن سَلْمَى وَقَـد كَادَ لا يَسْلُو
وأَقْفَرَ مِن سَلْمى التعانيقُ فـالثَّقْلُ[١]

لَأرْتَحِلَنْ بِـالـفَـجْـرِ ثُـمَّ لَأَدْأَبَـنْ
إلى الليـل إلاّ أَنْ يُعَـرِّجَني طِفْـلُ[٢]

إلى مَعْشَرٍ لم يُـورِثِ اللؤمَ جَـدُّهُـم
أصـاغِرَهُم وكُـلُّ فَحْلٍ لـه نَجْلُ[٣]

إذا فَـزِعـوا طـارُوا إلى مُسْتَغِيثـهِم
طوالَ الرماحِ لا ضعافٌ ولا عُزْلُ[٤]

وإنْ يـقْتَـلُوا فَيُشْتَـفى بِـدِمـائِـهِم
وكـانوا قـديماً من منـاياهُمُ القَتْـلُ[٥]

---

(١) ـ التعانيق والثقل: موضعان.

(٢) ـ أدأب: أجد في السير. يعرجني: يحبسني. كناية عن أن ناقته ستضع.

(٣) ـ اني مرتحل إلى اقوام يتوارثون المجد أباً عن جد، فكلهم أنجال لجد كريم.

(٤) ـ فزعوا: أغاثوا المستصرخين. العزل: مفرد أعزل: الذي لا سلاح له.

(٥) ـ أي أنهم أشراف يفتخر قاتلهم بقتلهم لأنه يشتفي بدمائهم لثارات عندهم لأنهم فرسان حرب وخصوصاً أن القتل عندهم أمنية من أمانيهم.

إذا لَحِقَتْ حَـرْبٌ عـوَانٌ مُضِـرَّةٌ
ضَرُوسٌ تُهِرُّ الناسَ أنيابها عُصْلُ[1]

تجِـدْهُمْ على ما خيِّلَتْ هم إزاءَهـا
وإن أفْسَدَ المالَ الجماعاتُ والأزْلُ[2]

يَحُشُّـونَها بـالمَشْـرِفيَّـةِ والـقَنَـا
وَفِتْيَانِ صِدْقٍ لا ضِعَافٌ ولا نُكْلُ[3]

مَتَى يَشْتَجِـرْ قـومٌ تقـلْ سَـرَوَاتُهُمْ
هُمُ بَيْنَنَـا فَهُمُ رضىً وهُمُ عَـدْلُ[4]

هُـمُ جَـرَّدُوا أحكـام كـل مُـضِـلَّةٍ
مِنَ العُقْمِ لا يُلْفَى لِأَمْثالِها فَصْـلُ[5]

بِعَــزْمَـةِ مَـأْمُـورٍ مُـطيـعٍ وآمِـرٍ
مُـطاعٍ فَـلَا يُلْقَى لِحَـزْمِهِم مِثْـلُ[6]

هُـمُ خـير حَيٍّ مِـنْ مَعَدٍّ عَـلِمْتُهُمْ
لهم نـائِلٌ في قَـوْمِهِم ولَهُم فضْلُ[7]

---

(١) ـ لحقت الحرب: اشتدت. العوان: المستمرة. الضروس: الشرسة. عصل: ناقة.

(٢) ـ خيلت: شبهت. الأزل: الذي يحبس المال ولا يرسل إلى المرعى.

(٣) ـ يحشونها: يهيجونها. حش النار: أوقدها. النكل: الجبناء. الواحد ناكل.

(٤) ـ يشتجر: يختلف. سروات وواحدها سري: السيد الشريف.

(٥) المضلة من الضلال: المربكة والمعمية. العقم: انعدام الولادة لأن الحرب مهلكة.

(٦) ـ يريد أنهم ذوو حزم كلمتهم مجتمعة وسياستهم صحيحة.

(٧) ـ لهم نائل: لهم عطاء. معد: جد غطفان.

فَـرِحْتُ بمـا خُبِّـرْتُ عن سَيِّـدَيكُمُ
وكـانـا امْـرأيْنِ كـلُّ أمـرِهمـا يَعْلُو[1]

رأى الله بـالإِحْسَـانِ مـا فَعـلا بِكُمُ
فـأبلاهمـا خَـيْرَ البَـلاَءِ الـذي يَبْلُو[2]

تـدارَكتُما الأحـلافَ قدْ ثُـلَّ عَـرْشُهـا
وذبيـانَ قَدْ زَلَّتْ بـأقدامهـا النَّعْلُ[3]

وإن جئتهُم أَلْفَـيْتَ حَـوْلَ بيـوتهم
مَجَـالِسَ قد يُشْفَى بـأحْلامِهـا الجَهْلُ

وإن قـامَ فِيهِم حَـامِـلٌ قـالَ قـاعِـدٌ
رَشَدْتَ فلا غُرْمٌ عَلَيْكَ ولا خَـذْلُ[4]

ومـا يـكُ من خَـيْرٍ أتـوه فـإنمـا
تَـوارَثَـهُـمْ آبـاءُ آبـائِهِم قَـبْـلُ

وَهَـلْ يُنْبِتُ الخَـطِّيَّ إلا وشيـجُـهُ
وتُغْرَسُ إلاّ في مَنابِتِها الـنَّـخْـلُ[5]

---

(١) ـ السيدان هما هرم بن سنان والحارث بن عوف.

(٢) ـ أبلاهما خير البلاء: أحسن لهما الصنع.

(٣) ـ تداركتما الأحلاف: حملتماهم الصلح. الأحلاف: أسد وغطفان وطيء. ثلّ: كسر وهدم. عرشها أراد به بناءها وبقاءه. ذبيان قبيلة الممدوحين. وأما زلت بأقدامها النعل إشارة إلى عمل حصين بن ضمضم الذي أشعل الحرب من جديد.

(٤) ـ رَشَدْتَ: أي تصرفت بعقل.

(٥) ـ الوشيج: الملتف في منبته. والواحدة وشيجة.

قائمة ببعض المصادر والمراجع.

١ ـ ابن قتيبة. الشعر والشعراء. تحقيق د. مفيد قميحة. بيروت

٢ ـ ابن رشيق. العمدة.

٣ ـ أبو الفرج الأصفهاني. الأغاني.

٤ ـ جرجي زيدان. تاريخ آداب اللغة العربية. دار الهلال.

٥ ـ جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار العلم للملايين.

٦ ـ زهير بن أبي سلمى. الديوان. دار صادر ـ بيروت.

٧ ـ شوقي ضيف. في العصر الجاهلي.

٨ ـ شوقي ضيف. الفن ومذاهبه في الشعر العربي.

٩ ـ طه حسين. في الأدب الجاهلي.

١٠ ـ طه حسين، حديث الأربعاء. ج١. دار المعارف بمصر.

١١ ـ علي الجندي. تاريخ الأدب الجاهلي.

١٢ ـ عمر فروخ. تاريخ الأدب العربي. دار العلم للملايين.

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

فهرس المحتويات